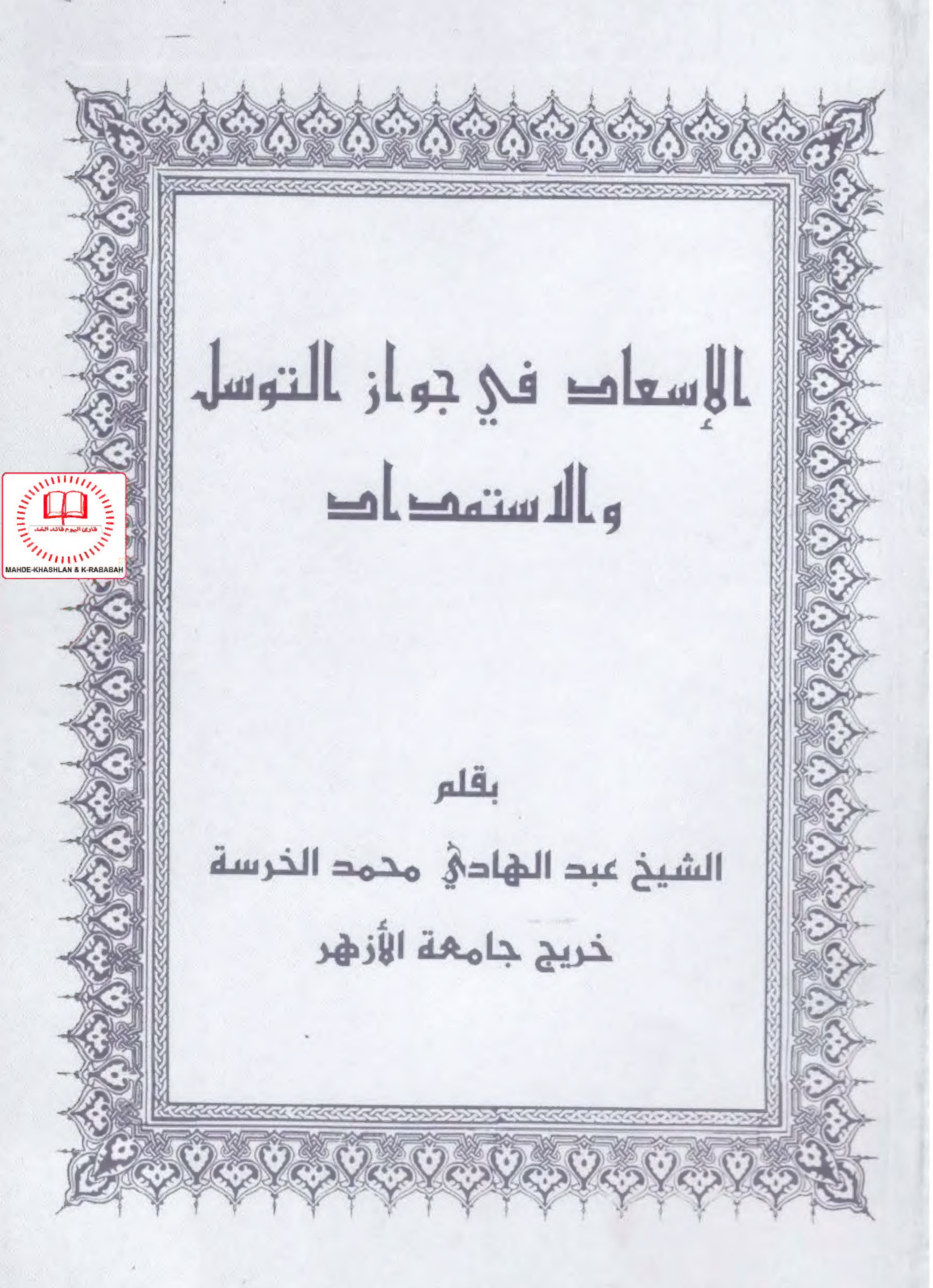


الإسعاد في جواز التوسل والاستمداد

بقلم

الشيخ عبد الهادي محمد الخرسة

خريج جامعة الأزهر

الإسعاد في جواز التوسل والاستمداد/بقلم عبد الهادي محمد الخرسه - دمشق : دارفجر العروبة ، ١٩٩٧. - ٨٠ ص ؛ ٢٤ سم

١ - ٢١٤,٧٧ خ ر س إ ٢ - العنوان ٣ - الخرسه

ع - ٤٦ / ١ / ١٩٩٧

مكتبة الأسد

يطلب الكتاب من المؤلف هاتف ٦٣٣٠٤٨٩

دار فجر العروبة

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - تجهيز - شارع البرازيل

هـ ٣٣١٦٣٢١ - ص.ب ٣٤٨٣٧

بسم الله الرّحمن الرّحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم

الحمد لله ربِّ العالمين ، اللهمَّ صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ عبدك ورسولك النبيِّ الأميِّ وعلى آله وصحبه وسلِّم : وصلِّ وسلِّم على جميع الأنبياء والمرسلين وآل كُلٍّ وصحب كلٍّ أجمعين وعلينا وعلى أهلينا وذوينا وإخواننا وأحبابنا بهم ومعهم آمين .

أمَّا بعد :

فهذه رسالة ـ الإسعاد في جواز التوسل والاستمداد ـ كتبتها لإخواني طلبة العلم الشرعي على منهج السؤال والجواب ليكونوا على بصيرةٍ من أمرهم فلا تلعب بهم الأهواء ولا الآراء ، وبالله التوفيق .

السؤال الأول : **ما معنى الاستغاثة والاستعانة ؟**

الجواب :

أ ـ الاستغاثة : طلب العبد الإغاثة ممَّن يقدر عليها حقيقةً وهو الله تعالى أو ممَّن أقدرهم الله عليها بحوله وقوته وهم أنبياؤه وأولياؤه وعبادُه .

ب ـ الاستعانة : طلب العبد العَون ممَّن هو قادر عليه بذاته وهو الله تعالى ، أو ممَّن خلق الله فيه القدرة على الإِعانة وهم عبادُه .

السؤال الثاني : هل يجوز الطلب من غير الله ؟
وما هي الأدلة على الجواز إذا قيل به ؟

الجواب مجملاً : يجوز طلب الإغاثة والإعانة طلباً لسانياً من جميع الأسباب العادية التي جرت سُنّة الله تعالى بخلق الإمداد بها وإجرائه عليها، مع اعتقاد عدم تأثيرها في شيءٍ من المقادير ، وعدم قيامها بنفسها ، وعدم استقلالها بالوجود .

وهذا الجواز بإجماع من يُعْتَدُّ بهم من علماءِ السلف والخلف ولم يخالف في ذلك إلا المبتدعة ولا يعتد بخلافهم .

الجواب مفصّلاً : السَّبب العادي عند علماء العقيدة الإسلامية هو ربط أمرٍ بأمرٍ وجوداً وعدماً مع صحة التخلف من غير أن يؤثّر أحدُهما في الآخر ألبتة .

وعالَم الخَلْق وعالَم الأَمْر بجميع أفرادهما داخلان في الأسباب العادية التي ليس لها تأثير ذاتي في إيجادٍ أو إمداد ، وليس في شيءٍ منها قوى مُودَعة ، وليس لشيءٍ منها حول أو قوة أو قول أو فعل إلا بالله تعالى ، وليس لشيءٍ منها قيام بنفسه بمعنى أنّه لا يصح استغناء شيءٍ منها عن الله تعالى وإمداده طرفةَ عَيْنٍ .

فالعالَم كُلُّه من عَرْشه إلى فَرْشه قائم بقيومية الله تعالى وإمداده وحوله وقوته ، وهذه الأسباب العادية تنقسم إلى قسمين :

١ ـ قسمٍ جرت سُنّة الله تعالى أن يخلُق على يديه قَدَراً ما لمن هو في

عالَم الشهادة وذلك كالملائكة والبَشر ، وهذا لكمال عالَم خلقه لوجود إمدادٍ من الله تعالى له بصفات المعاني السبعة من حيث تَعَلُّقَاتُها .

٢ ـ قسمٍ لم تَجر سُنّة الله تعالى أن يخلق على يديه أو عليه قدراً ما لمن هو في عالَم الشهادة وذلكِ لنقص عالمها عن إمداد الله تعالى بصفات المعاني جميعها ، وإن وُجد إِمداد ببعضها وذلك كالجماد والحَيوان .

وبناءً على وجود هذا الفارق المشاهَد والموافق للواقع بين هذين القسمين لا يصح لنا أن نقيس الجماد والحَيوان على الملائكة والبشر ، ولا يصح لنا أن نسوِّي بينهما ، فلا نعتبر مَن توجَّه بسؤالٍ ما إلى ملَك أو بشر مماثلاً لمن توجَّه بسؤاله إلى حَيَوان أو حجر ، ولا يصح كذلك أن نعتبر الأسباب العادية التي يُجري الله عليها المقادير والإمداد في عالم الشهادة الظاهر كالملائكة والبشر مثل الأسباب العادية التي لا يُجري الله عليها شيئاً من ذلك كالأصنام التي كان يعبدها الجاهليّون .

فيجوز شرعاً وعقلاً أن يطلب الإنسان بلسانه غَوْثاً أو عَوْناً من سببٍ عادي جرت سنة الله تعالى بخلق غَوْث أو عَوْن على يديه ، ويكون قلبه أثناء طلبه اللساني مشاهداً ومعتقداً أنَّ ذلك السبب العادي قيامه بقيومية الله ، وحولُه وقوتُه بالله ، وأنَّ ما يجري على

يديه إنّما هو بخلق الله وإمداده وليس للسبب تأثير ذاتي في شيء من ذلك القَدَر البتة .

فاللّسان يسأل الإنسان والقلب يُشاهد الرّب ، اللّسان يسأل السبب والقلب يشهد فعل الرّب عطاءً أو منْعاً .

وقد ذكر علماء التوحيد والعقيدة :

أنَّ السببَ واجب ونفي التأثير عنه واجب ، وأنَّ من نفى الأسباب فقد عطّل الحكمة ومَن أثبت لها التأثير فقد أشرك بالله .

أدلة جواز الاستعانة والاستغاثة من الكتاب والسُّنة

١ً - في سورة القصص قوله تعالى « فاستغاثه الذي مــن شِيعته على الذي من عدوِّه » . (٢٨ /١٥)

يقصُّ الله تعالى علينا قصة رجل قِبطي مِــن شِيعة نبيِّ الله سيِّدنا موسى عليه الصلاة والسلام استغاث بالنبيِّ فأغاثــه . والأنبيـاء عليهــم السلام كلُّهم جاؤوا بـالتوحيد وعـدم الشـرك ، فلـو كـانت استغاثة الرجل به نوعاً من الشِّرك لنهاه عن ذلــك ولَمَّـا قـصَّ الله علينـا ذلـك مقرِّراً له .

٢ً - في سورة الكهف قوله تعالى حاكياً عن ذي القَرنين وهو مسلم مؤمن « فأعينوني بقــوَّةٍ أجعـلْ بينكـم وبينهـم رَدْمـاً » (١٨ / ٩٥) فقد طلب من أتباعه أن يُعينوه ، ولو كان طلب العَوْن منهم نوعاً مِـن أنواع الشِّرك لما أقرَّه الله علـى ذلـك ولأنكـره عليـه ، ولمـا ذكـره في كتابه مقرِّراً له .

فإن قيل : هذا شرع مَنْ قَبْلنا .

فالجواب : هذا ليس حكماً من أحكام الشـريعة الـتي يجـوز أن تقبـل النسخ ، وإنما هو من أمور العقائد المتعلقة بالتوحيد ، وأمور العقائد لا

فرق فيها بين جميع الشرائع السماوية لأنَّ جميع الأنبياء والمرسلين عليه السلام عقيدتهم واحدة لا شِركَ فيها بوجهٍ من الوجوه .

وقد ورد في شرعنا ما يماثله وذلك في نصوصٍ كثيرة منها قوله تعالى « وتعاونوا على البرِّ والتَّقوى ولا تعاونوا على الإثم والعُدوان » (٥ / ٢) فلولا وجود عَوْن عند كل واحدٍ منّا من الله تعالى إمداداً لما وُجد مضمون الأمر والنَّهي الوارد في هذا النَّص في الواقع امتثالاً ، ويكون هذا النَّص حينئذٍ معطَّلاً وهو باطل .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « واللهُ في عَوْن العَبْد ما كان العَبْد في عَوْن أخيه » (رواه مسلم) فالله يُعينك ويُعين بك أَخاك ، ونسبَ ذلك إلى العبد وأضافه إليه مجازاً ، لاعتقادنا أنَّه لا حول ولا قوَّة إلا بالله العلي العظيم .

فإذا قلت لعبدٍ أَعنِّي أو أَغثني فالمراد من ذلك : أعنِّي بعَوْن الله تعالى الذي أمدَّك به ، وأغثني بحولِ الله تعالى وقُوَّته التي أيَّدك بها .

ومن اعتقد أنَّ مخلوقاً يُعين أو يُغيث أو ينفع أو يَضرُّ بذاته مِن ذاته فهو مُشْرك .

فإن قيل : قولك أعنِّي أو أغثني سؤال لمخلوق ، فكيف جاز ذلك والنبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال لابن عبَّاس رضي الله عنهما « إذا سألتَ فاسألِ الله وإذا استعنتَ فاستعن بالله ». (رواه الترمذي) ؟

فالجواب : قول النبي صلَّى الله عليه وسلَّم هـذا لابـن عبَّـاس رضـي الله عنهما لا يعني إلغاء الأسـباب ، ولا ينفـي سـؤالها والطلـب منهـا طلباً لسانياً ، وإنَّما معناه ـ والله ورسُوله أعلم ـ أنَّه إذا عَرَضـت لـك حاجة فاسألها من الله تعالى قبل توجهك اللساني الظاهر إلى الأسباب التي ترجو أن يكون قضاء تلك الحاجة على أيديها ، وبعد هذا التوجه القلبي لله أن يُيسِّر قضاء حاجتك تلك على أيدي الصالحين من عباده تتوجه بالطَّلب اللِّساني منهم .

ويصح أن يقال أيضاً : حالَ سؤالك اللِّساني للأسباب تحقـق أنَّـك تسأل الله تعالى ، لأنَّه هو الذي يُجـري مـا يشـاء مـن المقـادير علـى أيدي خلقه بحوله وقوَّته ، وليسوا شركاء معه في شيءٍ منها ، فاشـهد بعد ذلك التحقق القلبي المقرون بالسؤال اللِّساني للأسباب ما سيخلقه الله تعالى ويُجريه من مَنْع أو عطاء .

والذي أوجب هذا التأويل قول النبي صلَّى الله عليه وسـلَّم لربيعـة بن كعبٍ الأسلمي رضي الله عنه « سلْني » قال « أسألك مرافقتـك في الجنَّة » قال « أو غير ذلك » قال « هو ذاك » قال « فأعنِّي علـى نفسك بكثرة السجود » . (رواه مسلم)

فهل النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم يأمر ربيعة بالشِّرك عندما يقول لـه « سلني » ؟ حاشـاه مـن ذلـك ، وعندمـا قـال لـه ربيعـة « أسـألك مرافقتك في الجنَّة » لم يقُل له لا أقدِر علـى ذلـك أو لم يـؤذن لي فيـه

أو ليس هذا من اختصاصي ولا في وُسعي بل عليك أن تسأل الله ذلك ، وإنّما قَبل منه سؤاله وأقرَّه عليه وقال له « أعنّي على نفسك بكثرة السجود » .

فلولا أنَّ ربيعة كان يشهد بقلبه وحدانيَّة الله تعالى وأنَّ نبيَّه محمَّداً صلَّى الله عليه وسلّم ليس شريكاً مع الله في شيء وأنَّ حوله وقوَّته بالله وأنَّ الله هو الذي يُجري ما يشاء من المقادير على يديه لما قال له « سلْني » .

وفي حديث ربيعة هذا رَدٌّ على القائلين بأنه يُطلب مِنه ما يقدر عليه ولا يُطلب منه مالا يقدر عليه ، وذلك لأنَّ المرافقة في الجنة لا يقدر عليها أحد من البشر فكيف وافقه النبي صلّى الله عليه وسلَّم على طلبه هذا ؟

فتبين أننا لا نتعامل مع النبي صلّى الله عليه وسلّم عند الطلب مِنه فيما هو معتاد للبشر، إنّما نتعامل معه فيما ليس مُعتاداً لهم باعتبار خصوصيته عليه الصلاة والسلام فيما انفرد به عن الخلق جميعاً إلا الأنبياء ، بوصف النبوة والرسالة الذي شاركه فيه إخوانه الأنبياء والمرسلون عليهم السلام ، وسرى إلى وُرَّاثهم شيءٌ منه يسمى عند علماء التوحيد الكرامة وهو الأمر الخارق للعادة لا الجاري على وَفق العادة مما يقدر عليه البشر .

وقد رأيت في كلام السيِّد المحدِّث محمَّد علوي المالكي جزاه الله

خيراً ما يوضّح هذا الأمر وأنا أنقله بلفظه :

وقد طلب نبيُّ الله سيمان عليه السلام من أهل مجنسه من الجنِّ والإنس أن يأتوا بعَرْش بلقيس العظيم من اليمن إلى موضعه بالشام ، والإتيان بالعَرْش لا يقدر عليه إلا الله وليس داخلاً تحت مقدور الإنس ولا الجن عادة ، وقد طلبه نبيُّ الله سليمان من أهل مجلسه وقال له ذلك الصدِّيق « أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفُك » . (٢٧ / ٤٠)

فهل طلب نبي الله سليمان كفر ؟ وهل جواب ذلك الولي شِرك ؟ حاشاهما من ذلك ، بل هذا على طريقة خَرْق العادة فيكون ممَّا أقدرهم الله عليه وملّكهم إيَّاه ، وإسناد الفعل إليهما على طريقة المجاز . ا . هـ .

فأنا أرى أنَّ قول النبي صلَّى الله عليه وسلَّم لابن عبَّاس « إذا سألت فاسأل الله » وقوله لربيعة رضي الله عنه « سلني » لا مخالفة في أحدهما للآخر من حيث العقيدة وأنَّهما سواء ، وذلك لأنَّ حول رسول الله وقوَّته بالله تعالى ، وكذلك عموم الخلائق .

قال الله عزَّ وجلَّ له « وما رميتَ إذ رميتَ ولكنَّ الله رمى » (٨ / ١٧) وهو العبد الذي فتح الله تعالى على يديه ويفتح من الخير لأمّته كُلِّها مالا يفتحه على يد عبدٍ آخر ، وقد قال عليه الصلاة والسلام في ذلك « إنَّما أنا قاسم والله يعطي » (رواه الشيخان) .

وقال أيضاً « لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يُحبُّ اللهَ ورسولَه ويُحِبُّه الله ورسولُه يفتح الله على يديه » (رواه الشيخان) وهذا قاله في حق سيِّدنا عليٍّ رضي الله عنه وكرَّم وجهَّه ، فكيف هو في فتح الله على يديه وقد كمُل فيه مقاما المحبّة لله والمحبوبية عنده ؟ ألا يفتح الله على يديه أعظم ممَّا يفتحه الله على أيدي جميع محبّيه ومحبوبيه ؟

ورحم الله تعالى الشيخ يوسف النَّبْهاني وجزاه خيراً إذ قال في همزيته :

يقسم الجُود بينهم ومن اللـ ـــه أتاهم على يديه العطاءُ

وقد قال السيِّد المالكي جزاه الله خيراً في حديث ابن عبّاسٍ ما نصُّه :

والحقُّ أنَّ هذا الحديثَ الشريف وهو قوله عليه الصلاة والسلام « إذا سألتَ فاسألِ الله وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله » ليس المقصود به النهيَ عن السؤال والاستعانة بما سوى الله كما يفيده ظاهر لفظه ، وإنّما المقصود به النهي عن الغفلة عَن أنَّ ما كان من الخَير على يدِ الأَسباب فهو من الله ، والأمر بالانتباه إلى أنَّ ما كان مِن نعمةٍ على يد المخلوقات فهو من الله وبالله ، فالمعنى : وإذا أردت الاستعانة بأحدٍ من المخلوقين ولا بُدَّ لك منها فاجعل كل اعتمادِك على الله وحده ، ولا تحجبنَّك الأسبابُ عن شهود المسبِّب جلَّ جلاله ، وقد أومأ الحديث نفسه إلى هذا المعنى وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام

« واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعت على أن يضرّوك بشيء لم يضرُّوك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ عليك » أ . هـ

وقد ثبت تَوسُّل أصحابه رضي الله عنهم به عليه الصلاة والسلام وكانوا يفزعون إليه في الشدائد وينادونه قائلين « يا رسولَ الله » ، وإِليك الأدلة :

١ ً ـ أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن عبد الله ابن دينار قال : سمعتُ ابن عُمَر رضي الله عنهما يتمثل بشِعر أبي طالب :

وأبيض يستسقى الغَمام بوجهِه   ثِمال اليَتامى عصمةٌ للأرامـلِ

وفي لفظٍ قال « رُبَّما ذكرتُ قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبيِّ صلّى الله عليه وسلَّم يستسقي فما ينزل حتى تجيش كلُّ مِيزاب :

وأبيض يستسقى الغَمام بوجهِه   ثِمال اليَتامى عصمةٌ للأرامـلِ

فتمثل عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما بقول أبي طالب وتذكره نه يدلُّ على توسله بالنبّي صلّى الله عليه وسلّم وهو نصٌّ لا يحتمل غيره .

٢ ً ـ أخرج البيهقي رحمه الله تعالى من طُرق في دلائل النبوة (٦ / ١٤٠ ـ ١٤٢) :

عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه قال : جاء أعرابي إلى النبيِّ صلّى

الله عليه وسلَّم فقال : يا رسول الله لقد أتيناك وما لنا بعير يئط ولا صبي يصيح وأنشده :

أتيناكَ والعذراء يُدمى لبانها وقد شُغِلت أمُّ الصبيِّ عن الطِّفْل

وألقى بكفيه الصبيُّ استكانةً من الجُوع ضعفاً ما يمرُّ ولا يُخْلي

ولا شيء مِمَّا يأكل النَّاسُ عندنا سوى الحَنظَل العامي والعِلهز الفَسل

وليس لنا إلا إليك فرارنا وأين فِرار النَّاس إلا إلى الرُّسل

فقام رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حتى صعِد المنبر ثُمَّ رفع يديه إلى السماء فقال : « اللهمَّ اسقنا غَيثاً مُغيثاً مريئاً مَريعاً غَدَقاً طَبَقاً عاجلاً غير رائث ، نافعاً غير ضارٍّ ، تملأ به الضَّرْع ، وتُنبت به الزَّرْع ، وتحيي به الأرض بعد موتها وكذلك تُخرجون » فوالله ما ردَّ يديه إلى نحره حتى ألقتِ السماء بإبراقها » الحديثَ وفي آخره (فضحك رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حتى بدت نواجذه ثم قال : لله دَرُّ أبي طالب لو كان حيّاً قرَّتا عيناه ، مَنْ يُنشدنا قوله ؟ فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : يا رسول الله كأنك أردت :

وأبيض يُستسقى الغَمامُ بوجهه ثِمال اليَتامى عِصمةٌ للأرامل

يلوذ به الهُلاَّك مِن آلِ هاشمٍ فهُم عنده في نِعمةٍ وفواضل

قال الحافظ في الفتح (٢ / ٤٩٥) وإسناد حديث أنسٍ هذا وإن كان فيه ضَعْف لكنه يصلح للمتابعة .

٣ ـ أخرج البخاري رحمه الله أنّ أبا هُريرة رضي الله عنه شكا إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم النّسيان لما يسمعه من الحديث فقال : « يا رسول الله إني أسمع منك حديثاً كثيراً فأنساه فأُحبُّ أن لا أنسى » . فقال صلّى الله عليه وسلّم « ابسط رداءك » فبسطه فقذف بيده الشريفة من الهواء في الرداء ثم قال : « ضُمّه فضمّه . قال أبو هريرة فما نسيتُ شيئاً بَعدُ » .

٤ ـ وأخرج أيضاً في الاستسقاء « أنَّ أعرابياً ناداه وهو يخطب يوم الجمعة : يا رسولَ الله هلكتِ الأموال وانقطعت السُّبُل فادعُ الله أن يغيثنا فدعا الله وجاء المطر إلى الجمعة الثانية » .

٥ ـ ولقد ناداه حسّان بن ثابت رضي الله عنه ووصفه بأنّه الركن الذي يعتمد عليه والعصمة الذي يُلجأ إليه فقال :

يا رُكْن مُعْتمِد وعصمةَ لائذ	وملاذ منتجع وجار مجاور
يا من تخيّره الإلهُ لخلْقه	فحباه بالخُلُق الزّكي الطاهر
أنت النبيُّ وخير عصبة آدم	يا من يجود كفيض بحر زاخر
ميكال مَعْك وجبرئيلُ كلاهما	مدد لنصرك من عزيز قدر

انظر الإصابة (١ / ٢٦٤) والروض الأنف (٢ / ٩١)

٦ ـ وقال صلّى الله عليه وسلّم : « إنّ الله خلق خلقهم حين خ

النَّاس يفزع النَّاس إليهم في حوائجهم ، أولئك الآمنون مِن عذاب الله » . (رواه الطبراني بسند حسن)

فانظر إلى قوله « يفزع النَّـاس إليهـم في حوائجهـم » و لم يجعلهـم مشركين بل ولا عاصين .

فإن قيل : كان هذا جـائزاً في حـال حياتـه لا بعـد انتقالـه إلى الحيـاة البرزخية .

فالجواب :

١ً - من اعتقد أنَّ لأحدٍ من الخلق تأثيراً في الحياة ينقطع عنــه بانتقالـه إلى البرزخ فهو مُشْرك ، فليس لأحدٍ من الخلق تأثير ذاتي ولا قيام لـه بنفسه ، وحولُهم وقوتهم بالله تعالى ، والله تعـالى هـو يُجـري على أيدي خَلْقه ما يشاء من المقادير في حال حياتهم الدنيوية ، وكذلـك الأمر في حال الحياة البرزخية والأُخروية .

فلو كان للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم أو لغيره تأثـير في حياتـه كمـا توهَّم بعض القاصرين لصحَّ نفيه عنه بعد انتقاله ولجـاز حينئـذٍ سؤاله ونداؤه في حياته فقط ، أما مادام لا تأثير له في حياته الدنيوية كذلـك لا تأثير له بعد انتقاله إلى الحياة البرزخيـة ، والله تعـالى الـذي أجـرى بحوله وقوته على يديه الخير في حال حياته الدنيوية هـو الـذي يُجـري على يديه بعد انتقاله ، ومَن الذي يُقيِّـد الله تعـالى ويُوجـب عليـه أن يفتح على أيدي خلقه في حال حياتهم الدنيوية ولا يفتح على أيديهم

في حال انتقالهم إلى حياةٍ أخرى برزخية أو أخروية ؟

فالتوسل حكم مقرَّر جوازه مِن أحكام الشريعة المطهَّـرة ومعمـولٌ به في عصره لا يتغير بانتقاله عليه الصلاةِ والسلام كمـا لا تتغير بقيـة أحكام التشريع فلا يحق لإنسان أن يقول :

هل الوضوء جائز بعد موت النبي صلَّى الله عليه وسـلَّم ؟ ، وهـل الصلاة جائزة بعد مـوت النبي صلَّـى الله عليـه وسلَّم ؟ ، وهكـذا ، ومثـل ذلـك قولهـم : هـل التوسـل جـائز بعـد موتـه عليـه الصـلاة والسَّلام ؟

لأنها جميعاً أحكـام شـرعية مقـرَّرة بأدلتهـا وهـي معمـول بهـا في حياته وبعد انتقاله .

ومَن سأل عن ذلـك أو فـرّق بـين الأحكـام فأجـاز بعضهـا ومنـع بعضها دلَّ ذلك على جهله بالشـريعة وأصولها فـلا يُلتفـت إليـه بعـد إقامة الحُجَّة عليه .

٢ً ـ مَن تَوهَّم أنَّ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم قد انتقص شيء من كمالاته التي كـان عليهـا في الدنيـا بالانتقـال إلى الـبرزخ فهـو مخطئ وربَّما جرَّه ذلك إلى الكُفْر إذا قال بانفكـاك وصـف النبـوة والرسـالة عنه في برزخه ، وذلك أنَّ جميع الكمالات التي أثبتها الله تعالى لـه في كتابه أو أخبر بها هو عن نفسه ثابتة له باعتباره نبيًّا رسولاً ، ووصف النبوة والرسالة لا ينفك عنه في برزخٍ من البرازخ ، فجميع الكمالات

الثابتة له لا يصح انفكاكها عنه ، وإنَّ الرجل من أهل عصرنا عندما يُسلم يقول « أشهد أنَّ محمَّداً رسول الله » ولا يقول « أشهد أنَّ محمَّداً كان رسول الله » ، ويقول في كل تشهد « السلام عليك أيُّها النبي ورحمة الله وبركاته » ولا يقول السلام عليك يا من كنت نبيَّاً في حياتك ولست نبيَّاً بعد انتقالك ، فهو محمَّد نبيُّ الله ورسولُه ، كان ولا زال نبيّاً رسولاً ، وكل ما ثبت له من الفضائل والكمالات في حياته باعتباره نبيَّاً رسولاً ثابت له بعد انتقاله لأنه ما زال نبيَّاً رسولاً . وقد قال ربُّنا سبحانه وتعالى « وللآخرة خير لك من الأولى » (٩٣ / ٤) ، وثبت عنه قوله صلَّى الله عليه وسلَّم « القبر أول منزِل من منازل الآخرة » (رواه الترمذي) ، فبهذا يتبين أنَّ ما هو عليه في قبره خير له مما هو عليه في الدنيا .

وقد ثبت بالأحاديث الصحيحة وبالإجماع حياة الأنبياء وغيرهم في قبورهم ، وإليك بعض النصوص :

١ً - عَن أنسٍ رضي الله عنه قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم « الأنبياء أحياءٌ في قبورهم يُصلُّون » رواه أبو يعلى في مسنده بسند صحيح .

٢ً - وعنه أيضاً أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم قال : « أتيتُ موسى ليلة أُسري بي عند الكثيبِ الأحمر وهو قائم يصلّي في قبره » رواه مسلم .

٣ً ـ عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم « إنّ لله عزَّ وجلَّ ملائكةً سيَّاحين في الأرض يُبَلّغوني عن أُمّتي السلام » . رواه النّسائي وأحمد والحاكم وصححه والدّارمي والبيهقي في الشُعَب والبزّار وابن حبان في صحيحه .

٤ً ـ وعن أوس بن أوس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم « أفضل أيامكم الجُمعة فيه خُلق آدم ، وفيه قُبض ، وفيه النّفْخة . وفيه الصَّعْقة ، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه ، فإنّ صلاتكم معروضة عليّ ، قالوا وكيف تُعْرَض صلاتُنا عليك وقد أَرَمْت ؟ يقولون بَليت ، فقال : إنَّ الله قد حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » . رواه أبو داود وأحمد والنّسائي وابن ماجه والدارمي والبيهقي

٥ً ـ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم « حياتي خير لكم تُحدّثون ويُحدَّث لكم ووفاتي خير لكم تُعْرض عليَّ أعمالكم فما رأيتُ مِن خَيْرٍ حَمِدت الله عليه وما رأيت مِن شرٍّ استغفرتُ لكم » .

قال الحافظ العراقي في طَرْح التثريب (٣ / ٢٩٧) إسنادُه جَيِّد . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ / ٢٤) : رواه البزّار ورجاله رجال الصحيح . وصححه السيوطي في الخصائص (٢ / ٢٨١) وفي تخريج أحاديث الشِّفا ، وللشيخ العلاّمة المحقق السيِّد عبد الله ابن



الصِّديق الغُماري الحسني رحمه الله تعالى في هذا الحديث مؤلّف مطبوع اسمه : «نهاية الآمال في شَرْح وتصحيح حديث عَرْض الأعمال » .

ويدلُّ على ذلك قوله تعالى « وقل اعملوا فسيرى اللهُ عملكم ورسولُه والمؤمنون » الآية .

٦ ً - عَن أنسٍ رضي الله عنه قال قال رسول الله صلَّى الله عيه وسلَّم « إنَّ أعمالكم تُعْرَض على أقاربكم وعشائرِكم فإن كان خيراً استبشروا ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهمَّ لا تُمْتهم حتى تهديَهم كما هديتنا » . رواه الإمام أحمد وطرقه يشدُّ بعضُها بعضاً ، انظر الفتح الرَّباني ترتيب المُسْنَد (٧ / ٨٩) .

٧ ً- عَن عائشة رضي الله عنها قالت : « كنتُ أدخُل بيتي الذي فيه رسولُ الله وأبي وأضع ثوبي وأقول إنَّما هو زوجي وأبي ، فلمَّا دُفن عُمر معهما فو اللهِ ما دخلتُ إلاّ وأنا مشدودة عليَّ ثيابي حياءً مِن عُمر » رواه الإمام أحمد ، قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (٨ / ٢٦) رجاله رجال الصحيح ، ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذَّهبي .

٨ ً - عن سعيد بن المسيَّب رحمه الله تعالى قال : « لقد رأيتُني ليالِيَ الحَرَّة وما في مسجد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم غَيري وما يأتي

وقت صلاة إلا وسمعت الأذان من القَبْر » رواه أبو نُعيم بإسناد صحيح .

٩ ً ـ عَن جُبَير قال : « أنا والله الذي لا إله إلا هو أدخلتُ ثابتاً البُناني في لَحْده ومعي حُميد الطويل فلّما سوَّينا عليه اللَّبِن سقطت لَبنَة فإذا أنا به يصلي في قبره » رواه أبو نعيم بإسناد حسن .

١٠ ً ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم « إذا ولِيَ أحدُكم أخاه فليُحْسن كفنه فإنهم يتزاورون في قبورهم » .رواه الترمذي وابن ماجه

قال الشيخ ابن القيِّم رحمه الله تعالى في كتاب « الرُّوح » نقلاً عن أبي عبد الله القُرْطبي : صحَّ عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم اجتمع بالأنبياء ليلة أُسري به في بيت المقدس وفي السَّموات ، وقد أَخبر بأنَّه ما مِن مُسْلِم يُسلِّم عليه إلا وردَّ الله عليه رُوحه حتى يردَّ عليه السَّلام ، إلى غير ذلك ممَّا يحصل من جملته القَطْع بأنَّ مَوْت الأنبياء إنَّما هو راجع إلى أنَّهم غُيِّبوا عنَّا بحيث لا نُدركُهم وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم . أ . هـ

وقد دلَّ القرآن على حياة الأنبياء بعد انتقالهم وذلك أنَّ الله تعالى قال « ولا تحسبَنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم

يُرْزقون » (٣ / ١٦٩) ، فهذه الآية تدلُّ على حياة جميع الأنبياء بعد وفاتهم بمفهوم الموافقة ، وذلك أنَّ الأنبياء أولى بتلك المنقبة من الشهداء ، وتدل على حياة نبيّنا صلّى الله عليه وسلَّم بعموم لفظها وذلك أنَّ الله تعالى جمع له بين الشهادة والنبوة كما صحَّ ذلك .

وذكر صاحب ـ نظم المتناثر من الحديث المتواتر ـ أنَّ من جملة ما تواتر عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم حياةَ الأنبياء في قُبورهم .

السؤال الثالث : **هل ثبت أنَّ أحداً من أصحابه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو التابعين سأله بعد انتقاله ؟**

الجواب : نَعم ثبت ذلك وإليك بعض الأدلة :

١ ـ روى البيهقي وابن أبي شَيْبة بإسنادٍ صحيح عن مالك الدار وكان خازن عمر رضي الله عنه على الطعام « أنَّ النَّاس قحطوا في خلافة عمر رضي الله عنه فجاء رجل إلى قَبْر النَّبي صلّى الله عليه وسلّم وقال : يا رسول الله استسق لأُمَّتك فإنَّهم هلكوا ، فأتاه رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم في المنام وقال : ائت عمر بن الخطّاب وأقرئه السَّلام وأخبره أنهم يُسقون ، فأتاه فأخبره فبكى عمر رضي الله عنه ، وسُقوا » وقد صححه الحافظان ابن كثير في البداية (٧ / ١٠١) وابن حجر في الفتح (٢ / ٤٩٥)

ومحل الاستدلال : فعل الرجل وهو صحابي أو تابعي و لم ينكره

عمر ولا غيره فكان إجماعاً .

وقد روى سيف في الفتوح : أنَّ الرَّجل هو بلال بن الحارث المُزني أحد الصحابة ، قال ابن حجر إسناده صحيح (فتح الباري ج٢ / ٤١٥) .

٢ ـ روى الترمذي والنّسائي والبيهقي والطبراني بإسناد صحيح حديث توسل الأعمى به وبأمره صلَّى الله عليه وسلَّم ونصُّه : عن عثمان بن حُنَيف رضي الله عنه « أنَّ رجلاً ضرير البصر أتى النَّبي صلّى الله عليه وسلّم فقال : ادعُ اللهَ أن يُعَافيَني ، قال إن شئتَ دعوتُ ، وإن شئتَ صبرتَ فهو خير لك ، قال : فادعُه ، قال : فأمره أن يتوضأ فيُحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء (اللهمَّ إنّي أسألك وأتوجَّه إليك بنبيِّك محمَّدٍ نبيِّ الرَّحمة ، يا محمَّد إنّي توجّهت بك إلى ربّي في حاجتي هذه لتُقضى لي ، اللهمَّ فشفّعه فيَّ ، قال عثمان : فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضُرَ) » .

ورواه أيضاً ابن خزيمةَ في صحيحه ، وأحمد في المسند ، وابن ماجه في السُّنن ، والحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي .

ورواه ابن أبي خَيْثمةَ في تاريخه بإسنادٍ صحيح ونصُّه : عن عثمان ابن حُنَيف رضي الله عنه أنَّ رجلاً أعمى أتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : إنّي أُصبت في بصري فادعُ الله لي ، قال « اذهب

فتوضَّأ وصلِّ ركعتين ثُمَّ قُل : « اللهمَّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبييٍّ محمَّدٍ نبيِّ الرَّحمة ، يا محمَّد إنّي أستشفع بك على ربّي في رَدِّ بصري ، اللهمَّ فشفعنّي في نفسي ، وشفّع نبيِّي في ردِّ بصري ، وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك » .

وقوله « وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك » زيادة تفرَّد بها حمَّاد ابن سلمة ، وهي زيادة ثقة مقبولة لأنها لاتنافي أصل الحديث ولا تخالفه ، بل تُوافقه لأنَّ الأصل العموم واستعمال الحديث أيَّ وقت . قال الحافظ أبو حاتم ابن حِبَّان في الثقات (٨ / ١) : وزيادة الألفاظ عندنا مقبولة عن الثقات إذ جائز أن يحضر جماعة شيخاً في سماع شيء ثم يخفى على أحدهم بعض الشيء ويحفظه من هو مثله أو دونه في الإتقان .

وقد عمل الصحابة والتابعون والسلف والخَلف بحديث عثمان بن حُنَيف هذا في قضاء حوائجهم : فقد روى الطبراني في المعجم الصغير موقوفاً وصححه عن عثمان بن حُنَيف أنَّ رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفَّان رضي الله عنه في حاجةٍ له فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته ، فلقي عثمانَ بن حُنيف فشكا ذلك إليه فقال له عثمان ابن حُنَيف : ائت المِيضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصلِّ فيه ركعتين ثم قل : (اللهمَّ إنّي أسألك وأتوّجه إليك بنبيّنا محمَّد صلّى الله عليه وسلَّم نبيِّ الرَّحمة، يا محمَّد إنّي أتوجّه بك إلى

ربِّي جلَّ وعزَّ فيقضي لي حاجتي) قال : وتذكر حاجتك ، الحديثَ وفيه أنَّه قُضيت حاجته . وأخرجه أيضاً في المعجم الكبير ، وفي الدُّعاء ، وأخرجه البيهقي في الدلائل .

٣ً ـ أخرج الحافظ الدَّارِمي في سننه (باب ما أكرم الله تعالى نبيَّه بعد موته) .

عن أبي الجَوْزاء أوس بن عبد الله قال : قحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشَكوا إلى عائشة رضي الله عنها فقالت :« انظروا إلى قَبر النبي صلّى الله عليه وسلَّم فاجعلوا منه كُواً إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف ، قال : ففعلوا ، فمُطرنا مَطَراً حتى نبتَ العُشب وسَمِنت الإبل حتى تفتقت من الشَّحم فسُميَّ عام الفتق » وهو حديث حسن ، رجاله رجال الصحيح ما عدا عمرو بن مالك وهو ثقة .

٤ً ـ قال النبي صلَّى الله عليه وسلَّم لمعاذٍ رضي الله عنه لَّما أرسله لليمن : « فلعلّك تَمرُّ بقبري ومسجدي » . رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات ، فتوفي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وجاء معاذ إلى قبر النبي صلَّى الله عليه وسلَّم باكياً فمرَّ به عمر فقال : ما يبكيك ؟ فقال : حديث سمعته من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم « اليسير من الرِّياء شِرك » . ورواه ابن ماجه ، والحاكم وقال صحيح ولا يُعرف له علة ، ووافقه الذهبي .

* وقد ذكر جماعة من الحُفاَّظ والمحدثين ، منهمُ الإمام النووي رحمه الله في الأذكار ، وابن كثير رحمه الله في تفسيره : عن العُتْبي قال : « كنتُ جالساً عند قَبْر النبِّي صلَّى الله عليه وسلَّم فجاء أعرابي فقال : السَّلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول : « ولو أنَّهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهمُ الرَّسول لوجدوا الله توَّاباً رحيماً » (٤ / ٦٤) وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربِّي ، ثُمَّ أنشد يقول :

يا خير مَن دُفنت بالقاع أعظُمه — فطاب مِن طيبهنَّ القاعُ والأكَم

نفسي الفِداء لقبرٍ أنتَ ساكنُه — فيه العفافُ وفيه الجودُ والكَرَم

ثُمَّ انصرف الأعرابي فغلبتني عيني فرأيت النّبي صلّى الله عليه وسلَّم في النّوم فقال : إلحق الأعرابي فبشِّره أنّ الله قد غفر له » .

* وذكر الإمام القُرْطبي رحمه الله في تفسيره عن عَليٍّ رضي الله عنه قال : (قدِم علينا أعرابي بعدما دَفَنّا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بثلاثة أيّام فرمى بنفسه على قبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحثا على رأسه مِن تُرابه فقال : قلتَ يا رسول الله فسمعنا قولك ، ووعيتَ عن الله فوعينا عنك وكان فيما أنزل الله عليك « ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم » الآية وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي . فنُودي مِن القَبْر : إنّه قد غُفر لك) .

*وقد ثبت توسُّل النبي صلَّى الله عليه وسلَّم بالأنبياء قبله :

فقد أخرج الطبراني في المعجم الكبير والأوسط عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « لَّما ماتت فاطمة بنت أسدِ بن هاشم أمُّ علي ابن أبي طالب دخل عليها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فجلس عند رأسها فقال : (رحِمكِ اللهُ يا أمِّي بعد أمِّي) الحديث وفيه (فلمَّا بلغوا اللَّحد حفره رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بيده وأخرج ترابه بيده فلَّما فرغ دخل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فاضطجع فيه ثم قال : « الله الذي يُحي ويُميت وهو حيٌّ لا يموت اغفر لأمِّي فاطمة بنت أسد ولقِّنها حجَّتها ، ووسِّع عليها مُدْخلها ، بحقِّ نبيِّك والأنبياء الذين من قبلي ، فإنَّك أرحم الراحمين ») وكبَّر عليها أربعاً وأدخلوها اللَّحد هو والعبَّاس وأبو بكر الصّديق رضي الله عنهم » . وهو حديث حسن .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ / ٢٥٧) رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه رَوح بن صلاح وثَّقه ابن حِبان والحاكم وفيه ضعف ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

قال المحققون : ومن جرَّح رَوح بن صلاح لم يذكر سبب جرحه ولم يفسِّره فيكون جَرْحاً مُبْهَماً فيُرَد في مقابل التعديل والتوثيق المذكور قبله .

* وقد علَّمنا النبي صلَّى الله عليه وسلَّم دعاءً في التَّوسل يقوله المسلم

إذا خرج إلى الصلاة وهو :

عن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم « مَن خرج مِن بيته إلى الصلاة فقال : اللهمَّ إنّي أسألك بحقِّ السائلين عليك ، وأسألك بحقِّ مَمْشاي هذا ، فإني لم أَخْرُج أَشَراً ولا بَطَراً ولا رياء ولا سُمْعة ، وخرجت اتّقاء سَخَطك وابتغاء مَرْضاتك ، فأسألك أن تعيذَني من النَّار ، وأن تغفر لي ذنوبي ، إنَّه لا يغفر الذُّنوب إلا أنت ، أقبل الله عليه بوجهه ، واستغفر له سبعون ألفَ مَلَك » .

أخرجه ابن ماجه ، وأحمد ، وابن خزيمة وصححه ، والطبراني ، وابن السُّني ، والبيهقي ، وابن أبي شيبة وإِسناده حسن ، وقد حسَّنه جمع من الحُفَّاظ منهم الحافظ الدِّمياطي ، والحافظ أبو الحسن المقدِسي شيخ الحافظ المُنذري ، والحافظ العراقي ، والحافظ ابن حجر العسقلاني ، رحمهم الله تعالى .

*ورُوِيَ أنَّه توسَّل آدم عليه السلام بالنبِّي صلّى الله عليه وسلَّم قبل إبراز جسده الشريف :

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم « لمَّا اقترف آدمُ الخطيئة قال : يارِبِّ أسألك بحقِّ محمَّدٍ لَما غفرت لي ، فقال الله : يا آدم وكيف عرفت محمَّداً ولم أخلقه ؟ قال : يارِبِّ لأنَّك لمَّا خلقتني بيدك ، ونفختَ فيَّ من

رُوحك ، رفعتُ رأسي فرأيت على قوائم العَرْش مكتوباً « لا إلـه إلاّ الله محمَّد رسول الله » فعلمـتُ أنَّـك لم تُضِـف إلى اسمـك إلاّ أحـبَّ الخلق إليك ، فقـال الله : صدقـت يـا آدم ، إنَّـه لأَحـبُّ الخَلْـق إليَّ ، وإنَّك إذ دعوتني بحقه فقد غفرت لـك ، ولـولا محمَّـد مـا خلقتـك » رواه الحاكم وصححه ، والبيهقي في الدلائـل وقـال : تفـرَّد بـه عبـد الرَّحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ، وذكـره ابـن كثير في البدايـة والنّهاية (ج١ / ١٨٠) ولم يحكم بوضعه .

*وأخبر النبّـي صلّى الله عليـه وسـلّم أنَّ أُمَّتـه يسـتنصرون بأصحابـه وأتباعهم فينصرون :

فقد أخرج أبو يعلى الموصلي في مسنده بسـند صحيـح عـن جابرٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلَّى الله عليـه وسـلَّم قـال : « ليأتينَّ على النَّاس زمان يخرج الجيش مِن جيوشهم فيقال : هـل فيكـم أحـد صحب محمَّداً فتستنصرون به فتُنصـروا ؟ ثـم يقـال : هـل فيكـم مَـن صحـب محمَّـداً ؟ فيُقـال : لا ، ثـم يقـال :هـل فيكـم مَـن صحِـب أصحابه ؟ فيقال : لا ، فيقال : مَن رأى مَن صحب أصحابـه ؟ فلـو سمعوا به من وراء البَحْر لأَتَوه » وفي رواية « ثـم يبقـى قـوم يقـرؤون القرآن لا يدرون ما هو » .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ١٨) رجاله رجال الصحيح .

وفيه استحباب التّوْسل بذوات الصالحين .

*« وكان النبِّي صلَّى الله عليه وسلَّم يستفتح بصعاليك المهـاجرين »
قـال الهيثمـي (١٠ / ٢٦٢) رواه الطـبراني مـن طريقـين ورجـال
أحدهما رجال الصحيح .

فإن قيل : لِمَ استسقى عمر بالعبَّاس رضي الله عنهمـا كمـا ثبـت في
الصحيح وترك الاستسقاء برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ؟ .

فـالجواب : توسُّـل عمـر بالعبَّـاس رضـي الله عنهمـا ليبـين للنَّـاس
مشروعية التوسل بغير الأنبياء عليـه السـلام وأنَّـه جـائز ولا حَـرجَ في
فعله ، وإنَّما خصَّ العبَّاس من بين سائر الصحابة لإظهار شَـرف أهـل
البيت .

ولو أنّه توسَّل بالنبي صلَّى الله عليه وسلَّم لجاء من يقول : التوسل
بغيرالأنبياء لا يجوز ولو كان جائزاً لفعله الصحابة رضي الله عنهم .

وأجاب المحقق المالكي جزاه الله خيراً وغيره بأنَّ في فعل عمر تـرك
التوسل به صلَّى الله عليه وسلَّم مع قيام المقتضي وهو شدة الحاجـة ،
والترك لا يدلُّ على التحريم أو الكراهية وإنّما يفيد الـتركُ أنَّ المـتروك
جائز تركُه فقط ، أمَّا التحريم أو الكراهيـة فهـذا يحتـاج لدليـل آخـر
يفيد الحظر .

وقد حرَّر مسألة التَرك تحريراً ما عليه مزيـد الشـيخ العلاَّمـة المحقّـق
عبد الله ابن الصِّديق الغُماري رحمه الله تعالى في رسالة مطبوعة باسم
« حُسْن التَّفهم والدَّرْك لمسألة التَّرك » فلتُراجع .

وإنَّ الصحابة قد تركوا التوسل المتفق على جلالته وفضله وهو التَّوسل بأسماء الله وصفاته وهم مضطرون لحال الشِّدة والقحط فهل تركهم لذلك يدلُّ على تحريمه ؟

وإنَّ قول عمر رضي الله عنه « وإنّا نتوسل إليك بعمِّ نبيِّنا » لا يخرج عن كونه توسلاً بالنبي صلَّى الله عليه وسلَّم فقد قال العبَّاس في دعائه « وقد توجَّه القومُ بي إليك لمكاني مِن نبيِّك » فتوسل عمر به فيه إرضاء للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم واقتداء به في إكرام عمِّه واتخاذه وسيلةً لقُرْبه ثم مع هذا رجاء دعائه لصلاحه .

فإن قيل : هل ثبت أنَّ نفعاً أجراه الله تعالى على يد مَن هو في البرزخ للأحياء حياةً دنيوية ؟

فالجواب : نعم ، ففي حديث الإسراء والمعراج في الصحيحين وغيرهما أنَّ سيِّدنا موسى عليه السلام كان سبباً في تخفيف الصلوات مِن خمسين إلى خمس ، فهذا نفع أجراه الله على يد سيِّدنا موسى عليه السلام عمَّ الأُمَّة المحمديّة كلها إلى يوم القيامة .

فصل في دراسة بعض النصوص القرآنية الدالّة على جواز الاستمداد ووقوعه وذكر بعض قواعد العقائد في ذلك

١ ـ النّص الأوَّل :

قال الله تعالى : « إذ تستغيثون ربَّكم فاستجاب لكم أنّي ممدُّكم بألفٍ مِن الملائكة مُرْدفين » سورة الأنفال / ٩ / .

في هذا النّص بيان أنَّ الصحابة رضوان الله عليهم استغاثوا بالله سبحانه فاستجاب لهم فأغاثهم وأمدَّهم بألفٍ من الملائكة عليهم السَّلام ، والملائكة مِن جُنود الله تعالى يُمدُّهم بحوله وقوَّته ، ويُمدُّ بهم من يشاء من عباده ، والذي يُمدُّ الملائكة وهو الله تعالى ، قُدرتُه قابلة من حيثُ التعلق أَن يُمدَّ بها من شاء من عباده ، وأن يُمدُّ بهم غيرهم ، لأنَّ الخَلْق جميعاً سواء من حيثُ الإمكان والحُدوث وجواز تعلّق صفاتِ الله تعالى بهم .

ومَن الذي أوجب على الله تعالى أن يُمدَّ الملائكة ويُمدَّ بهم فقط ولا يُمدَّ بالأنبياء والأولياء والصالحين ؟ مع العلم أنَّ الجميع حولُهم وقوَّتُهم بالله سبحانه وتعالى ، وما التفريق بين الملائكة والأنبياء

والأولياء إلا من قبيل التفريق بين المتماثلين ، ولا يقوله أحد من المحققين .

وقد ثبت في الحديث القدسي الصحيح قول الله تعالى « ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتى أُحبَّه ، فإذا أحببته كنتُ سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله ، ولئن سألني لأُعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنَّه » رواه البخاري . أليس هذا نصاً أنَّ الله يُمدُّ أحبابه وأصفياءه بإمدادٍ خاصٍّ يكونون به عنده كبعض ملائكته ؟

فإن قيل : لِمَ لم يُغثِ الله الصَّحابةَ بذاته وأغاثهم بملائكته ؟ .

فالجواب : قال علماء التوحيد : إعطاءُ الله تعالى عبده مِن باب الحِكمة ـ أي الأسباب ـ أحبُّ إليه مِن إعطائه له مِن باب القُدرة ـ أي بلا أسباب ـ .

فالله هو المعطي عند الأسباب وهو المُعطي بلا أسباب ، وهو الوهَّاب بالأسباب وهو الوهَّاب بلا أسباب ، ونحن في عالَمٍ يُسمَّى عالَم الشهادة رتَّب الله تعالى فيه المقادير على الأسباب بحكمته ، ألا تنظر كيف أعطى الله تعالى بعض الملائكة تدبير أمور هذا العالَم فقال « فالمدبِّرات أمراً » (٧٩ / ٥) أسند التدبير إليهم مجازاً لأنَّهم قائمون بإبراز مقادير الله تعالى في السموات والأرض بأمره ومشيئته وبحوله وقوته .

ولم يقع أنَّ الله تعالى أغاثَ أحداً بتجلٍ ذاتي منه سبحانه مِن غير

أَنْ يلطِّفه بالدوائر الإمكانية بدوائر الأسماء والصفات رحمةً منه سبحانه ، وإنَّما أغاثهم بالأسباب لأنها لا قيام لها بنفسها ، وإنَّما قيامها به سبحانه كما قال النبي صلَّى الله عليه وسلَّم « اللهمَّ أنت قيُّوم السمواتِ والأرضِ ومَن فيهنَّ » (رواه الشيخان) .

وقد أسند الحق تعالى ما أبرزه على يد عباده إليه في آيات كثيرة منها قوله تعالى : « فلم تقتلوهم ولكنَّ الله قتلهم وما رميتَ إذْ رميت ولكنَّ الله رمى » (٨ / ١٧) ، « قاتلوهم يعذبْهم الله بأيديكم » (٩ / ١٤) ، « ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذابٍ مِن عنده أو بأيدينا » (٩ / ٥٢) ، « والله خلقكم وما تعملون » (٣٧ / ٩٦) .

٢ - النَّص الثاني :

قال تعالى : « إذْ يُوحي ربُّك إلى الملائكة أنِّي معكم فثبتوا الذين آمنوا » (٨ / ١٢) .

في هذا النَّص أنَّ الله تعالى أمدَّ ملائكته بمعيَّةٍ خاصة وأمرهم لوجود هذا الإمداد الإلهي لهم أنْ يُثبِّتوا الذين آمنوا ، وفيه أنَّه أسند التثبيت إليهم مجازاً لأنَّ الله تعالى هو المثبت الحقيقي ، فلو أنَّ رجلاً مؤمناً قال « يا ملائكةَ الله ثبِّتوني » أو قال « اللهمَّ ثبتني بملائكتك » لا يكون مشركاً لأنَّه يعلم حقَّ العِلم أنَّ تثبيتهم له حاصل بمعيةِ الله تعالى التي لهم وبأمرٍ إلهيٍّ موجَّه إليهم .

ومِن المعلوم في العقيدة أنَّ خواصَّ البشر وهمُ الأنبياء والرُّسل عليهم السَّلام أفضل عند الله تعالى مِن خواصِّ الملائكة عليهم السَّلام ، وإذا ثبتت فضيلة للملائكة نصَّاً فهيَ ثابتة لمن هو فوقهم وأعلى منهم رتبة ومنزلة مِن باب أولى .

فيكون للأنبياء والمرسلين مِنَ المعيَّة الإِلهية والتأييد الإِلهي الثابت لهم بصفة الاختصاص ما يُثبِّت به الله تعالى كلَّ من آمن بهم في حياتهم الدنيوية أو البرزخية على حدٍّ سواء .

ولو أنَّ مؤمناً طلب مِن الله أن يثبته بنبيه وأن يُمِدَّه به لم يكن بذلك مشركاً كما توهَّم بعضهم .

٣ ـ النَّص الثالث :

قال تعالى : « بلى إِن تصبروا وتتقوا ويأتوكم مِن فَورهم هذا يُمددكم ربُكم بخمسةِ آلافٍ مِن الملائكةِ مُسوِّمين » (٣ / ١٢٥) .

فالنَّص ظاهر في أنَّ المُمدَّ هو الله سبحانه وتعالى ، وأنَّ مظهر الإِمداد وصورته خمسة آلافٍ مِن الملائكة حولُهم وقوتُهم بالله سبحانه وتعالى ، فالذي يُمِدُّ بالملائكة يُمِدُّ بغيرهم مِن خلقه إذا شاء لأنَّ جميع الخَلْق حَولهم وقوتهُم به سبحانه وتعالى .

وما هذا التعاون الظاهر في عالَم الشهادة بين البَشر ، وقضاءُ حوائج بعضهم على أيدي البعض الآخر إلا وجه من وجوه الإِمداد الإلهي الذي يجريه عليهم بحوله وقوته مِن غير أن يكون لأحدٍ منهم

تأثير ذاتي في شيءٍ من تلك المقادير .

وقد ثبت في الحديث الصحيح قول رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم عند بروز أيِّ قَدَر من المقادير على يد أحدٍ من الخلق « قدَّرَ اللهُ وما شاءَ فَعَل » . (رواه مسلم)

وثبت في الحديث الصحيح كذلك قول أنسِ بن مالك رضي الله عنه « خدمتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم عشر سنين فما قال لي لشيءٍ فعلتُه لِمَ فعلتَه ؟ ولا لشيءٍ تركتُه لِمَ تركتَه ؟ قال : ولا لامني أهلي على شيءٍ إلا قال دعوه فإنَّه لو قُدِّر لكان »

(رواه الشيخان)

وثبت في الحديث الصحيح كذلك قوله عليه الصّلاة والسَّلام « ما شاء الله كان ، وما لم يشأ م يكن ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله » (رواه أبو داود) ومعنى ذلك : ما شاء الله كان وإن لم يشأه الخَلْق ، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الخَلْق

٤ ـ النّص الرَّابع :

قال تعالى « وإن يُريدوا أن يخدعوك فإنَّ حَسْبَك الله هُو الذي أيَّدك بنصره وبالمؤمنين » . (٨ / ٦٢)

فالنَّص ظاهر في أنَّ المؤيِّد هو الله تعالى ، والمؤيَّد هو رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، والمؤيَّد بهم هم المؤمنون ، ومعنى قول تعالى (فإنَّ حَسْبك الله) أي كافيك الله فهو يتولى كفايتك وحِياطتك .

فالذي يؤيّد بالمؤمنين ويُعِزُّ بهم دينه ويفتح على أيديهم ، يؤيِّدُ بسادات المؤمنين مِنَ الأولياء والصِّديقين والأنبياء والمرسلين ، والذين لا فرق في إمدادِ الله لهم بين حياتهم الدنيوية وحياتهم البرزخية .

فلو قال رجل لأخٍ له مؤمن أيِّدني بتأييد الله لك ، أو أمدَّني بمَدَد الله عندك ، أو دعا الله تعالى بقوله : اللهمَّ أيِّدني بعبادك المؤمنين كما أيَّدت نبيَّك محمَّداً صلَّى الله عليه وسلَّم ، لم يكن مُشْركاً، بل ذلك هو مَحْض الإيمان وحقيقتُه .

فإن قيل : ما معنى قوله تعالى « يا أيُّها النبي حَسْبُك الله ومن اتَّبعك من المؤمنين » (٨ / ٦٤) ؟

فالجواب : ذكر الإمام القُرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره أقوالاً **وهي** : **قيل** : المعنى حسبُك الله ، وحسبُك المهاجرون والأنصار ، فيكون قوله « من اتَّبعك » في موضع رفع ، قال أبو جعفر : سمعت علي بن سليمان يقول : يكون عطفاً على اسم الله جلَّ وعزَّ ، أي حسبُك الله ومَن اتَّبعك ، قال : ومثله قول النبي صلَّى الله عليه وسلَّم « يكفينيه الله عزَّ وجلَّ وأبناء قَيْلة » يعني الأنصار ، وهذا قول مروي عن الحسن .

وقيل : المعنى كافيك الله ، وكافي مَنْ تبعك ، وقيل يجوز أن يكون المعنى « ومَن اتَّبعك من المؤمنين » حسبُهم الله ، ويجوز أن يكون (مَن) في موضع نصبٍ على معنى : يكفيك الله ويكفي مَن اتَّبعك .

وكفاية الله تعالى لنبيه صلَّى الله عليه وسلَّم وللمؤمنين تكون مِن عالم القُدرة إِذا شاء الله تعالى ذلك ، وربَّما تكون تلك الكفاية مِن عالم الحِكْمة وعلى هذا يُخرَّج قول الحسن رحمه الله تعالى ، ومثله قوله تعالى : « إنَّا كفيناك المستهزئين » (١٥ / ٩٥) وكانوا خمسة من رُؤَساء المشركين مِن أهل مكة فكفاه الله تعالى إِيَّاهم وأهلكهم بسيِّدنا جبريل عليه السَّلام كما أجمعت عليه كلمة المفسِّرين .

وعلى هذا عندما يقول المسلم : حسْبنا الله ونِعم الوكيل ، يكون المعنى يكفينا الله تعالى ما شاء كيف يشاء بقدرته أو بحكمته سبحانه وتعالى ، وهذا كدعاءِ الغلامِ المؤمن في حادثة الأخدود الثابتة في الصحيح بقوله « اللهمَّ اكفينيهم بما شئت وكيف شئت » .

٥َ ــ النَّص الخامس :

قال تعالى « وأيَّده بجنودٍ لَمْ تَروها » . (٩ / ٤٠)

فالنَّص ظاهر في أنَّ المؤيِّد هو الله ، والمؤيَّد هو رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، والمؤيَّد بهم جنود غَير مرئيين لعمومِ البشر ، وربُّنا عزَّ وجلَّ قال في نصٍّ قُرآني آخر « ولله جُنود السَّموات والأرض » .

وأنبياء الله ورسله وأولياؤه مِن جنوده ، ولا يشك في هذه الحقيقة مؤمن صحيح الإِيمان ، فالذي يؤيِّد بجنودٍ غير مرئية مِن العالَم العُلْوي يؤيِّد بجنودٍ غير مَرئية مِن العالَم السُّفلْي .

ومِن المقطوع به أنَّ أَرواح عباد الله المقرَّبين مِـن أَنبيـاءَ وصديقـين وشـهداء جوَّالـة في الملكـوت ، تَـروح حيـث شـاءت ، قـــال تعــالى « فأمَّـا إنْ كـان مِـن المقرَّبـين * فـــرَوح وريحــان وجَنَّــة نعيــم » . (٥٦ / ٨٨ - ٨٩)

قـال الإمـام مـالك بـن أنـس رحمـه الله تعـالى « بلغنـــا أنَّ أرواح المقربين تروح حيث شاءت » .

نقل ذلك عنه الشيخ ابن قيـم الجوزيـة رحمـه الله تعـالى في كتابـه « الرُّوح » .

فالأرواح إذن مِن جنود الله تعـالى ويجـوز شـرعاً وعقـلاً أن يؤيِّـد الله بها مَن شاء مِن عباده بعد مفارقة أجســادها ، فـالذي يدعـو الله تعالى قائلاً : اللهمَّ أيِّدني بجنودٍ مِن السَّماء والأرض ، أو يا جنودَ الله في السموات والأرض أيِّدوني بتأييد الله لكـم أو عندكـم ، لا يخـرج عن الإيمان ولا يكون مِن المشركين .

٦ ـ النَّص السادس :

قال الله تعالى مخاطباً سيِّدنا عيسى بن مريم عليه الصلاة والســلام ومخبراً عنه « إذْ أيَّـدتك بـرُوح القُدُس » (٥ / ١١٠) ، « وأيَّـدناه برُوح القُدُس » . (٢ / ٨٧ - ٢٥٣)

فـالمؤيِّد هـو الله سـبحانه ، والمؤيَّـد هـو عيسـى بـن مريـم عليـه السلام ، والمؤيَّد بـه هـو رُوح القُـدُس سـيِّدنا جـبريل عليـه السَّـلام

فالذي يؤيِّد بجبريل وهُو رُوح وغيب ومن عالم اللطائف النُّورانية يؤيِّد بسيدنا مُحمَّد بعد انتقاله إلى حياة البرزخ لأنَّه بتجرده عن جسمه المادِّي المُلكي رَجَع إلى حقيقته وهي رُوح وغيب ومن عالم اللطائف النورانية فهو في برزخه كجبريل بل هو أفضل منه إجماعاً ، ويؤيِّد الله بمن شاء من أهل البرزخ من أَنْبياء وأولياء بعد تجردهم عن المادَّة الأرضية كما أيَّد بجبريل وبملائكته المجرَّدين عن المادَّة الأرضية .

وقد أُسند مجازاً إلى عيسى عليه السَّلام إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، قال تعالى حكايةً عنه « وأُبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله » . (٣ / ٤٩)

فما دام قد وُجد الإذن الإلهي لعبدٍ محبوبٍ عنده أنزل الله نفسه منزلته فلا ضيرَ في الإسناد المجازي لمن ظهر ذلك على يديه ، والمدد كذلك لا يُوجد إلا بإذنٍ إلهيٍّ فلا حَرَج في إسناد المدد مجازاً لمن ظهر على يديه ، والمجاز مستعمل في نصوص الكتاب والسُّنة ، يعلم هذا كل مَن له إلمام ولو يسيراً باللغة والبلاغة ، ومِن ذلك قوله تعالى « وإذا تُليت عليهم آياتُه زادتهم إيماناً » (٨ / ٢) فإسناد الزيادة إلى الآيات مجاز لأنها سبب في الزيادة ، والذي يزيد حقيقة هو الله تعالى وحده ، ومِن ذلك قوله تعالى حكايةً عن جبريل عليه السَّلام « لِأَهَب لكِ غلاماً زكيًّا » . (١٩ / ١٩)

فإسناد الوَهْب إليه مجاز والواهب حقيقة هو الله تعالى وحده ،

وقوله تعالى « فالمدبِّراتِ أمراً » (٧٩ / ٥) فإسناد التدبير إلى الملائكة مجاز والمدبِّر حقيقة هو الله تعالى ، وقوله تعالى «يوماً يجعلُ الوِلدان شيباً » (٧٣ / ١٧) فإسناد الجَعْل إلى اليوم مجاز عقلي والجاعل حقيقةً هو الله تعالى ، وقوله تعالى « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مِمَّا تنبت الأرض » (٣٦ / ٣٦) فإسناد الإنبات إلى الأرض مجاز والمُنبت حقيقة هو الله تعالى ، والنصوص كثيرة تُعلم بالمدارسة والبحث .

وقد ثبت دعاء رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لحسان بن ثابت رضي الله عنه عندما كان يقول الشِّعر في المسجد النبوي ويهجو المشركين بقوله له « قُل ورُوح القُدُس معك » وفي رواية « قُل ورُوح القُدس يؤيدك » وفي رواية « اللهمَّ أيِّده برُوح القُدُس » أخرجها الإمام البخاري في صحيحه .

فهل كان النبي مشركاً عندما أسند التأييد والمعية إلى جبريل بدلاً مِن أن يُسندها إلى الله تعالى ؟

حاشاه من ذلك بل هو سيِّد الموحِّدين صلَّى الله عليه وسلَّم ، فهويشهد أنَّ رُوح القُدُس وغيره من الخَلْق كلَّهم قيامهم بالله تعالى وحولُهم وقوتهم به عزَّ وجلَّ ، وليس لهم أيُّ تأثير ذاتي في إمدادٍ أو تأييد ، وهذا الإسناد اللفظي إلى السبب ما هو إلا إسناد مجازي لا يغيب أهل التوحيد بسببه عن الحقيقة الإيمانية أنَّ الله تعالى بيده

مقادير كلِّ شيء ، وأنَّه هو المُنفرد بالإيجاد والإمداد ، وأنَّه خالق ذلك على يد الخَلْق بعضهم لبعض ، لا شريك له في المُلك ولا في الخَلْق ، وله الحمد وحده وهو الخَلاَّق العليم .

٧ ـ النَّص السابع :

قال الله تعالى « وإنْ تظاهَرا عليه فإنَّ الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكةُ بعد ذلك ظهير » . (٦٦ / ٤)

المَوْلى هو النَّاصر والمؤيِّد والمُعين ، وهذا النَّص ظاهر أنَّ الله ناصره وجبريل وصالح المؤمنين وقدَّم في الآية صالح المؤمنين على الملائكة وكلُّهم ناصروه ومؤيِّدوه .

أَلا يكفي أنَّ يقول الله تعالى « فإِنَّ اللهَ هو مولاه » ؟ ولِمَ قرن نُصرةَ جبريل وصالح المؤمنين والملائكة بنصرته تعالى ؟

والجواب : إنَّ نصرتهم وتأييدهم له صلَّى الله عليه وسلَّم مَظْهر مِن مظاهر نصرة الله له في عالم الشهادة وعن طريق الأسباب من باب الحِكمة .

فلو أنَّ قائلاً قال : اللهمَّ انصرني بجبريل ، أو يا جبريل انصرني ، أو اللهمَّ انصرني وأيِّدني بصالحي المؤمنين وبملائكتك ، أو يا أيُّها الصالحون ويا أيُّها الملائكة انصروني ، وكان يعتقد أنَّه لا تأثير لهم مِن حيث ذواتُهم ، وأنَّهم مظاهر يُجري الله تعالى عليهم أقداره ونَصْره ، لم يكن مشركاً كما زعم الجاهلون .

وذلك لأنَّ الله تعالى ذكر في هذا النَّص أنَّ جبريل والصالحين والملائكة مِمَّن ينصر الله تعالى بهم ويؤيِّد .

٨ ـ النَّص الثامن :

قال الله تعالى : « إِنَّ الذين قالوا ربُّنا اللَّهُ ثُمَّ استقاموا تتنزل عليهمُ الملائكةُ ألاَّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجَنَّة التي كنتم تُوعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة » الآيات (٤١/٣٠ - ٣١)

مِن المعلوم المقطوع به أنَّ الملائكة لا تَتنزل إِلا بأمرٍ من الله تعالى ، قال سبحانه « وما نتنزل إِلاّ بأمرِ ربِّك » (١٩ / ٦٤) ، ولا شك أنَّ اللهّ أمرهم أنْ يُطَمْئِنوا المؤمنين وأن يُذهبوا عنهم أسباب الخوف والحُزن وأن يُبشِّروهم بالجنَّة ، وأن يخبروهم أنَّهم أولياء لهم ، أي ناصرون مؤيِّدون .

وهذا معنىً من معاني دِفاع الله تعالى عن المؤمنين ودفعه عنهم لقوله تعالى « إِنَّ الله يدافع عن الذين آمنوا » وفي قراءة « إِنَّ الله يَدْفع عن الذين آمنوا » .(٢٢ / ٣٨)

وذكر الحقُّ تعالى عن ذاته أنَّه وليُّ الذين آمنوا ، وجعل في هذا النَّص ملائكته أولياء للذين آمنوا واستقاموا ، وجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، والنُّصوص كلُّها عامَّة التعلق بالمؤمنين في جميع البرازخ في الدنيا وفي الآخرة ، لأنَّ المؤمنين لم يُسلب عنهم وصف الإيمان



بانتقالهم إلى البرزخ ، فيكون بين المؤمنين من أهل البرزخ ولاية للمؤمنين في الدنيا ، ويكون للملائكة ولاية لجميعهم ، وولاية المؤمنين والملائكة مَظْهر ولايةِ الله تعالى لعباده المؤمنين التي تفضل بها عليهم مِن الأَزَل وإلى مالا نهاية له مِن الأَبَد .

يقول الله تعالى « إنّما وليُّكم الله ورسولُه والذين آمنوا » . (٥/٥٥) ، ويقول أيضاً « ومَن يتولَّ الله ورسولَه والذين آمنوا فإنَّ حزبَ الله هُم الغالبون » . (٥ / ٥٦)

فمن قال : يا أوليائي من ملائكة الله ومن عباده المؤمنين انصروني وأيِّدوني وأمِدُّوني لم يكن مُشْركاً بل كان عاملاً بالنصوص القرآنية القطعية وذلك كمال الإيمان .

٩ - النّص التاسع :

قال الله تعالى عن عباده الأبرار والمقرَّبين « لهم ما يشاؤون عند ربِّهم » . (٣٩ / ٣٤)

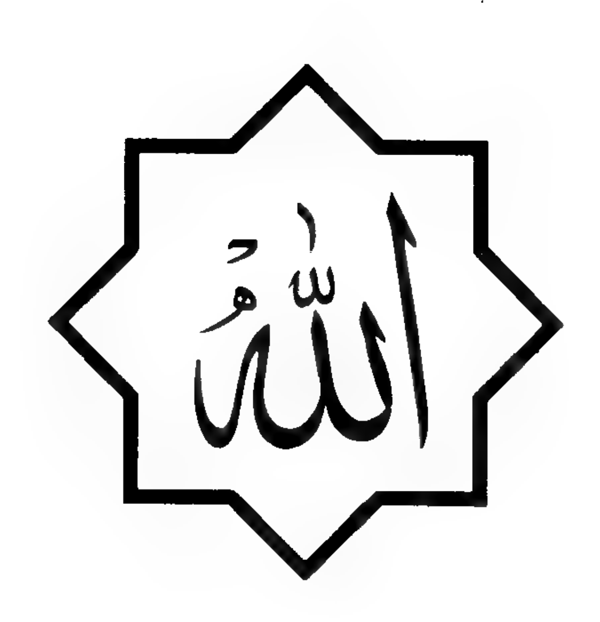
* عندية الله تعالى منزهة عن الزمان والمكان لأنّهما لا يجريان عليه سبحانه وتعالى ، بل هما ظرفان حادثان للمظروفِ الحادث .

فكل مَن كان من عباد الله المحبوبين كانت له عندية الله وهي معيّته وتأييده ، وكان له ما يشاء ، سواء كان حيَّاً حياةً دنيوية أو برزخية أو آخروية .

وهؤلاء هم المُرادون بالحديث القدسي السابق « فإذا أحببته كنت

سمعه وبصره » الحديث .

وفي الجنة يشترك معهم في هذه الخاصية هناك جميع أهل الإِيمان مِن أتباعهم لقوله تعالى « لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد » .



فصل في دراسة بعض الأحاديث النبوية الدالَّة على جواز الاستغاثة والاستعانة بإمداد الله تعالى الذي أمدَّ به جميع خلقه

١ ــ الحديث الأول : أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال : «.إنَّ الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغَ العَرَق نصف الأُذُن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثُمَّ بموسى ثُمَّ بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم » الحديث .

فالحديث يدلُّ على أنَّ أهل الموقف كلهم أجمعوا على الاستغاثة بالأنبياء عليهم السَّلام ، وذلك بإلهامٍ من الله تعالى لهم ، وهو دليل على نَدْب التوسل والاستغاثة بهم في الدنيا والآخرة ، وقد أُجيبوا بعد هذه الاستغاثة وهذا أدلُّ دليلٍ أنَّ الاستغاثة عند الشدائد بأكابر المقرَّبين مِن أعظم مفاتيح الفَرَج ، ومِن أسباب رضى ربِّ العالمين .

ولو كانت هذه الاستغاثة بالأنبياء والمُرسلين نوعاً من أنواع الشِّرك لحُكم على جميع أهل الموقف بالشِّرك ، ولكانوا مستوجبين لغضب الأنبياء والمرسلين ، ولكان على الأنبياء ألاَّ يغيثوهم بل يقولوا لهم استغيثوا بالله .

والواقع يومئذٍ خلاف ذلك فقد أغاثهم الأنبياء والمرسلون عليهم السَّلام ، على رغم أنوف المنكرين ، فلم يكن ذلك مِن الشِّرك في شيءٍ أبداً .

٢ ـ الحديث الثاني : عن عُتْبة بن غزوان رضي الله عنه عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال : « إذا أضلَّ أحدُكم شيئاً أو أراد عَوْناً وهُو بأرضٍ ليس فيها أنيس فليقُل : يا عبادَ الله أغيثوني ـ وفي رواية ـ أعينوني ، فإنَّ لله عباداً لا ترونهم » رواه الطبراني في المُعْجم الكبير وقال : وقد جُرِّب ذلك .

* فهذا الحديث صريح في جواز الاستغاثة والنداء لمن لا نراهم مِن عباد الله تعالى ويدخل فيهم الأحياء حياة برزخية مِمَّن هم الرَّوْح فيروحون حيث شاؤوا وقد تقدم ما يدلُّ عليه .

وقد عمل بهذا الحديث الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ففي شعب الإيمان للبيهقي ، وفي كتاب المسائل قال عبد الله ابن الإمام أحمد سمعت أبي يقول : « حججت خمس حجج منها اثنتين راكباً وثلاثة ماشياً أو ثنتين ماشياً وثلاثة راكباً فضللت الطريق في حجَّة وكنت ماشياً ، فجعلت أقول : يا عباد الله دُلُّونا على الطريق . فلم أزل أقول ذلك حتى وقعت على الطريق » .

٣ ـ الحديث الثالث : عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال : « إنَّ لله ملائكةً في الأرْض

سوى الحفظة يكتبون ما يسقط مِن ورق الشجر فإذا أصاب أحدَكم عَرْجة بأرضٍ فلاةٍ فليناد : أعينوا عباد الله » . قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ١٣٢) رواه البزار ورجاله ثقات ، وقال الحافظ في تخريج الأذكار (شرح ابن علاّن ١٥١/٥) حسن الإسناد غريب ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عبَّاس موقوفاً .

٤ - الحديث الرابع : ذكر الإمام النَّووي رحمه الله تعالى في الأذكار قول النبي صلَّى الله عليه وسلَّم « إذا انفلتت دابَّة أحدكم في فلاةٍ فليناد : يا عباد الله احبسوا عليَّ ، فإنَّ لله حاضراً سيحبسه عليكم » رواه الطبراني في المعجم الكبير عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه ، وذكره ابن القيِّم رحمه الله في كتابه (الوابل الصيِّب) وذكر أنَّ شيخه ابن تيمية رحمه الله تعالى : عملِ به .

وقال الإمام النَّووي رحمه الله بعد أن ذكر الحديث : حكى لي بعض شيوخنا الكبار في العلم أنَّه انفلتت له دابَّة أظنُّها بغلة وكان يعرف هذا الحديث فقاله فحبسها الله عليهم في الحال وكنتُ أنا مرَّةً مع جماعة فانفلتت منها بهيمة وعجزوا عنها فقلته فوقفت في الحال بغير شيءٍ سوى هذا الكلام .

٥ - الحديث الخامس :

ذكر الإمام النّووي رحمه الله تعالى في الأذكار : «عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّه خدِرتْ رِجْل رَجُل عنده فقال له : اذكر

أحبَّ النَّاس إليـك ، فقـال يـا محمَّـد فذهـب خَـدرُه » رواه ابـن السُّني .

وعَنْ مجاهد رحمه الله تعالى قال : « خَدِرت رِجْل رَجُلٍ عند ابـن عبَّاس رضي الله عنهما فقال له ابن عبَّاس : اذكر أحبَّ النَّاس إليك ، فقال : محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم فذهب خَدَرُه » رواه ابن السُّـني .
وذكر ذلك أيضاً ابن تيمية رحمه الله تعالى في الكلم الطيِّب .

* وذكر الحـافظ ابـن كثـير رحمـه الله أنَّ شِعار المسـلمين في موقعـة اليمامة كان « يا مُحمَّداه » . البداية والنهاية (٦ / ٣٢٤) .

قال بعض المحققين : وإذا جاز السؤال بالأعمال فبالنبي صلَّى الله عليه وسلَّم أولى لأنَّه أفضل المخلوقات والأعمال منها ، والله أعظم حُبَّاً له صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الأعمال وغيرها .

أقول : وتبيَّن بهذه الأحاديث أنَّه ليس في ذكر رسول الله صلَّـى الله عليه وسلَّم ولا في ندائه أو الاستغاثة به شيء مـن الشِّـرك وإلاَّ لكـان أولئك الأئمة من الصَّحابة وتابعيهم مشركين ، حاشاهم مِن ذلك بـل هُم خُلَّصُ أهل التوحيد والإيمان .

فإن قيل : هذه الأحاديث ضعَّفها بعض أَهْلِ عصرنا مِن أدعياء العلـم بالحديث وأصوله :

فالجواب : ما مِن حديث منها إلا وقد حسنَّه بعض أئمة هذا الشـأن المعتبرين كما تقدمت الإشارة إليه ، ومَن ضعَّفه مِـن هـؤلاء الأدعيـاء

فإنَّما ضعَّفه بالرأي والهوى لأنَّ هذه الأحاديث مخالفةٌ لبدعته الضلالة فلم يجد سبيلاً إلا تضعيف الحديث .

وعلى تقدير ضعفه فهو محجوج بعمل الأئمة الأعلام به ومن المعلوم عند المحدثين أنَّ الحديث الضعيف يتقوى بعمل بعض الأئمة به ، ويصير مِن قسم المقبول إذا تلقته الأُمَّة بالقَبول .

قال الإمام البيهقي رحمه الله تعالى في السُّنَن الكبرى بعد أن روى حديث صلاة التسبيح : وكان عبد الله ابن المبارك يفعلها وتداولها الصالحون بعضهم عَن بعض ، وفيه تقوية للحديث المرفوع .

فإن قيل : ما معنى الجاه الذي يُتوسل به إلى الله تعالى ؟

فالجواب : الجاه :هو المنزلة التي يَختص اللهُ بها مَن شاء مِن عباده .

فالله سبحانه متصف بصفةٍ تُسمى صفة الاختصاص ، قال عزَّ وجلَّ « يختص برحمته مَن يشاء» (٣ / ٧٤) ، والنبوة والرسالة والولاية الخاصَّة ليست مكتسْبة بل هي محض فضل إلهي واجتباء واختصاص ربَّاني يكون بسببها لذلك العبد منزلة عند الله تعالى تُسمَّى الجاه .

قال عزَّ وجلَّ في صفة الاجتباء « الله يجتبي إليه مَن يشاء ويَهدي إليه من يُنيب » . (٤٢ / ١٣)

وقال سبحانه في إثبات الجاه والوَجاهة والمَكانة لبعض أنبياءه وملائكته عليهم السَّلام النصوص التالية :

١ ً - قال في حق سيِّدنا موسى عليه الصلاة والسلام « وكان عند الله وجيهاً » (٣٣ / ٦٩) أي ذا وَجاهة .

٢ ً - وقال في حقِّ سيِّدنا عيسى عليه الصلاة والسلام « وجيهاً في الدنيا والآخرة ومِن المقرَّبين» .(٣ / ٤٥)

٣ ً - وقال عن سيِّدنا جبريل عليه السلام « ذي قُوَّة عند ذي العَرْش مكين » (٨١ / ٢٠) أي صاحب مكانة .

ومِن المقطوع به أنَّه إذا ثبتت فضيلة لنبيٍّ أو مَلَك ثبتَ مثل ذلك لجميع الأنبياء عليهم السَّلام لأنَّهم خواصُّ البشر وهم أفضل مِن خواصِّ الملائكة .

فالإنسان عندما يتوسل إلى الله تعالى بجاه نبيٍّ أو وليٍّ فإنَّ ذلك يعني أنَّه توسَّل إلى الله تعالى.بفعلٍ مِن أفعاله خلقه لذلك النبي سمَّاه جاهاً ، وبصفة من صفاته سمَّاها اختصاصاً ، وهذا مِن التوسل إلى الله تعالى بصفاته وبأفعاله ، وهو مجمع على جوازه عند أهل الحق .

فإن قيل : كيف نعرف أنَّ لهذا العبد منزلةً عند الله تعالى ؟ .

فالجواب : نَعرف ذلك بتعريف الله تعالى لنا إمَّا بإخباره في كتابه الكريم كالنصوص المتَقدمة ، وإمَّا بإخبار رسله عليهم السلام لنا بفضلهم كالصحابةِ المشهودِ لهم تعيناً وكبعض التابعين مثل أويس القَرَني رحمه الله تعالى ، وإمَّا بأن يجعل الله لهم القَبول عند الخاصَّة والعامَّة من عباده الصالحين فيُقبل بقلوبهم إلى محبتهم وبألسنتهم للثناء

عليهم فنستدل بذلك أنَّ لهم جاهاً ومنزلةً عنده لأنَّ الصالحين شـهداء الله في أرضه ، يقبل شهادتهم على عباده ، وقد قال النـبي صلّـى الله عليه وسلَّم في بيان ذلك مخاطباً أصحابـه رضـي الله عنهـم ومَـن هـو على شاكلتهم من عباد الله الصالحين « أيُّمـا عبـدٍ أَثْنيتـم عليـه خـيراً وجبتْ له الجَنَّة ، وأيُّما عَبْدٍ أثنيتم عليه شَرَّاً وجبـت لـه النّـار ، أنتـم شهداءُ الله في الأَرض » أخرجه الشيخان .

فإذا أردت أن تعرف منزلة عَبْدٍ عنـد الله تعـالى فـانظر إلى منزلتـه عند الصالحين مِن سلف الأمة وخلفها ، وانظـر إلى شـهادات العلمـاء الربانيين فيه .

فإن قيل : كيف نوفّق بين هـذه الأدلـة المتقدمـة وبـين حديـث النـبي صلّى الله عليه وسلَّم الذي رواه الطبراني رحمه الله تعـالى مرفوعـاً : « إنَّه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله » ؟

أجاب بعض أهل العلم المحققين جزاه الله خيراً بقوله :

إنَّ المراد هو إثبات حقيقة التوحيد في أصل الاعتقـاد وهـو أنَّ المُغيـث حقيقة هو الله تعالى ، والعبد ما هو إلا واسطة في ذلك .

أقول : هذا الحديث لا يعارض الأحاديث الدَّالة علـى جـواز التوسـل والاستغاثة وإنما فيه بيان أنّه لا تأثـير للنّبي صلّـى الله عليـه وسـلّم في شيءٍ من المقادير التي يُجريها الله تعالى على يديـه في حياتـه الدنيويـة والبرزخية وقد أنزل الحق تعالى نفسه منزلة عبده ورسوله محمَّد صلـى

الله عليه وسلَّم في كثيرٍ مِن الآيات القرآنية كقوله تعالى « من يُطع الرسول فقد أطاع الله » (٤ / ٨٠) ، وقوله « إنَّ الذين يبايعونك إنَّما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » (٤٨ / ١٠) ، وهذا الحديث متوافق مع تلك الآيات في بيان أنَّ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم حولُه وقوته بالله تعالى .

وعندما حمل النبي صلَّى الله عليه وسلَّم الأشعريين رضي الله عنهم قال لهم « ما حملتكم وإِنَّما حملكم الله تعالى » . (رواه الشيخان)

مسألة في حُكم التبرك بآثار النبي صلّى الله عليه وسلّم والصّالحين مِن عباد الله تعالى

سؤال : هل يجوز التبرك بآثار النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم بعد انتقاله إلى البرزخ ؟

وهل يجوز التبرك والاستشفاء بآثار الصالحين ؟

الجواب : نعم يجوز ذلك كُلُّه ، ويشهد لـه قوله تعالى حكايةً عن سيِّدنا يوسف عليه الصلاة والسلام « اذهبوا بقميصي هذا فألقُوه على وجه أبي يأتِ بصيراً » . (١٢ / ٩٣)

وإليك بعض الأدلة مِن الحديث الشريف :

١ ً ـ روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه (٥٨٩٦) قال عثمان بن عبد الله ابن وَهْب : « أرسلني أهلي إلى أمِّ سلمة بقَدَح مِن ماء ـ وقبض إسرائيل ثلاث أصابع ـ مِن قُصَّة فيها شعر مِن شعر النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم ، وكان إذا أصاب الإنسان عَيْن أو شيء بعث إليها مُخضبة ، فاطَّلعتُ في الجُلجل فرأيت شعراتٍ حُمْراً » .

قال العلاَّمة العَيني رحمه الله تعالى في عمدة القاري ١٨ / ٧٩ « وبيان ذلك أنَّ أمَّ سلمة كان عندها شعرات مِن شعر النَّبي صلَّى

الله عليه وسلَّم ، حُمْـر في شـيءٍ مثـل الجُلجُـل ، وكـان النَّـاس عنـد مرضهم يتبركون بها ويستشفون مِن بركتها ، ويـأخذون مِـن شـعره ويجعلونه في قَدَحٍ مِن الماء فيشربون الماء الذي فيه الشَّعر فيحصـل لهـم الشِّفاء » .

٢ً - روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى أيضاً عن محمَّد بـن سـيرين قال : قلتُ لعَبيدة : عندنا مِن شَعْر النبي صلّى الله عليه وسلّم أصبنـاه مِن قِبل أنس - أو مِن قِبل أهل أنـس ـ فقـال : « لأن تكـون عنـدي شَعرة منه أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها » .

٣ً - روى الإمام مسـلم رحمـه الله تعـالى عـن أسمـاء بنـت أبـي بكـر قالت : « هذه جُبَّةُ رسـول الله صلَّـى الله عليـه وسـلَّم كـانت عنـد عائشة حتى قُبضت ، فلَّما قُبضَـت قبضتهـا ، وكـان النَّبي صلَّـى الله عليه وسلَّم يلبسها فنحن نغسلها للمرضى يُستشفى بها » .

قال الإمام النَّووي رحمه الله تعالى في شرحه على الصحيـح١٤/ ٤٤ « وفي هـذا الحديـث دليـل علـى استحباب التبرك بآثـار الصَّـالحين وثيابهم » .

٤ً - أخرج الإمام أحمد رحمه الله تعالى في مسنده عـن داود بـن أبـي صالح قال : « أَقْبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضعاً وجهه على القَـبْر فقال : أتدري ما تصنع ؟ فأقبل عليه ، فإذا هو أبو أيوب فقال : نعـم جئـتُ رسـولَ الله صلّـى الله عليـه وسـلّم ولم آتِ الحجـر ، سمعـت

رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول : « لا تبكُوا على الدِّين إذا وليَه أهلُه ، ولكن ابكُوا عليه إذا وليَه غير أهله » .

وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

والحديث فيه التجاء أحد الصَّحابة إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وتمسحُه بقبره الشريف .

٥ - عن جعفر بن عبد الله ابن الحَكَم أنَّ خالد بن الوليد فَقَد قَلَنْسوة له يوم اليرموك فقال : « اطلبوها فلم يجدوها ، فقال : اطلبوها فوجدوها ، فإذا هي قَلَنْسُوة خَلِقة ، فقال خالد : اعتمر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فحلق رأسه فابتدر النَّاس جوانب شعره ، فسبقتهم إلى ناحيته فجعلتها في هذه القَلَنْسوة فلم أشهدْ قِتالاً وهي معي إلا رُزقتُ النَّصْر » .

رواه أبو يعلى والحاكم والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح .

* فَتْوى للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في جواز ذلك :

قال عبد الله ابن أحمد بن حنبل في الجامع في العِلل ومعرفة الرِّجال (٢ / ٢٢) : « سألتُ أبي عَن الرجل يَمَسُّ مِنبَر النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم ويتبرك بمسِّه ويقبلُّه ويفعل بالقَبْر مثل ذلك أو نحو هذا يريد بذلك التقَّرب إلى الله عزَّ وجلَّ فقال : لا بأس بذلك » .

وروى ابن الجَوزي رحمه الله تعالى في مناقب الإمام أحمد بالسند إلى عبد الله ابن أحمد قال : « رأيت أبي يأخذ شعرة مِن شَعَر النَّبي

صلّى الله عليه وسلّم فيضعها على فِيه ويُقبِّلها ، وأحسب أنّي رأيته يضعها على عينيه ويغمسها في الماء ثُمَّ يشربه يستشفي به » .

وأمَّا التبرك بآثار الصَّالحين فأدلتُه كثيرة في كُتب التراجم ومنها :

١ ـ أخرج الحافظان ابن عساكر وابن الجَوزي عن الرَّبيع بن سليمان قال : « إنَّ الشافعي رحمه الله تعالى خرج إلى مصر فقال لي : يا ربيع خُذْ كتابي هذا فامضِ به وسلّمه إلى أبي عبد الله (أحمد بن حنبل) وأتني بالجواب ، قال الرَّبيع ، فدخلتُ بغداد ومعي الكتاب فصادفتُ أحمد بن حنبل في صلاة الصُّبْح فلمَّا انفتل مِن المحراب سلّمت إليه الكتاب وقلت له : هذا كتاب أخيك الشافعي مِن مصر فقال لي أحمد : نظرت فيه ؟ فقلت لا ، فكسر الختم فقرأ وتغرغرت عيناه فقلت له : أَيْشٍ فيه يا أبا عبد الله ؟ فقال : يذكر فيه أنّه رأى النَّبي صلّى الله عليه وسلّم في النَّوم فقال له : اكتب إلى أبي عبد الله فاقرأ عليه السَّلام ، وقل له : إنّك ستُمتحن وتُدعى إلى خَلْق القرآن فلا تُجبهم فسيرفع الله لك عَلَماً إلى يوم القيامة ، قال الرَّبيع : فقلت له البِشارة يا أبا عبد الله فخلع أحد قميصيه الذي يلي جلده فأعطانيه ، فأخذت الجواب وخرجت إلى مصر وسلّمته إلى الشافعي ، فقال : أيشٍ الذي أعطاك ؟ فقلت : قميصه ، فقال الشافعي : ليس نفجعك به ولكن بُلّه وادفع إليَّ الماء لأتبرك به » .

وفي رواية ابن الجوزي : قال الشافعي : « لا نبتاعُه منك ولا نستهديه ، ولكن اغسله وجئنا بمائه ، قال : فغسلته فحملت ماءه إليه فتركته في قِنِّينَة وكنتُ أراه في كُلِّ يومٍ يأخذ منه يمسح على وجهه تبركاً بأحمد بن حنبل » .

٢ً ـ جاء في كتاب ـ الحِكايات المنثورة ـ للإمام الحُجّة ضياء الدِّين المقدسي رحمه الله تعالى قال : « سمعت الشيخ الإمام أبا محمَّد عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي يقول : خرجَ في عضُدي شيء يُشبه الدُّمَّل ، وكان يبرأ ثُمَّ يعود ودام بذلك زماناً طويلاً ، فسافرت إلى أصبهان وعُدت إلى بغداد وهو بهذه الصِّفَة ، فمضيتُ إلى قبر الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وأرضاه ومسحتُ به القبر فبَرأ ولم يعُد » .

٣ً ـ جاء الإمام السُّبْكي رحمه الله تعالى لزِيارة الإمام النَّووي رحمه الله تعالى فوجده قد تُوفيّ ، فأتى إلى دار الحديث وسأل عن مكان جلوس الإمام النووي فدُلَّ عليه فصار يُمرِّغ وجهه ولحيته عليه وأنشد :

وفي دار الحديث لطيفُ معنى ... أصلّي في جوانبها وآوي

لَعلّي أن أمسَّ بِحُرِّ وجهي ... مكاناً مسَّه قدم النَّواوي

والشواهد كثيرة وإنما أردت بما ذكرته الاستشهاد والاستدلال ولم أُرِد الاستقصاء ، ومَنْ لم ينفعه القليل لا ينفعه الكثير ، والله أعلم .

بعض أدلة وجوب اتباع الأئمة المجتهدين رحمهم الله تعالى

سؤال : هل اتباع الأئمة المجتهدين من السلف وتقليدهم واجب متعين على كل مسلم بحيث لا يخرج في مسألةٍ ما عن أقوالهم ؟

الجواب : اتباع الأئمة المجتهدين وتقليدهم واجب بالإِجماع ولا يُعتد بمن خالفه وشذَّ عنه ، وإليك الأدلة :

١ً - الله سبحانه وتعالى أمرنا في سورة الفاتحة الشريفة أن ندعوه قائلين « اهدنا الصراط المستقيم صراطَ الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » آمين .

فقوله « صراط الذين أنعمت عليهم » بدل كل من كل أو عطف بيان ، وهذا يعني أنَّ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين على الصراط المستقيم وأنَّ من اتبعهم ممن لم يبلغ إحدى مراتبهم و لم يجعله الله قدوةً للمسلمين والمؤمنين كان على الصراط المستقيم باتباعهم ، ومن خالفهم وخرج عن اتباعهم دخل في المغضوب عليهم أو الضالين الذين ندعو الله سبحانه أن يجنبنا طريقهم وسبيلهم المنحرف والمعوَّج ، ولا شك أنَّ الأئمة المجتهدين وأتباعهم من العلماء والصالحين ممن وضع الله لهم القبول في الأرض وأبقى الثناء لهم في الوجود داخلون فيمن أنعم الله عليهم ولا يشك

في ذلك إلا مَنْ في قلبه مرض ، وهذا يندرج فيه جميع ماسنوه للمسلمين من السنن الحسنة التي تُرضي الله ورسوله صلَّى الله عليه وسلَّم لأنهم ممن أذِن الله ورسوله لهم أن يسنوا للأمة السنن الحسنة بقَوله عليه السلام « من سنَّ في الإسلام سنةً حسنةً كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » الحديث (رواه مسلم) . وهذا ليس لأفراد الأمة لأنهم لا يحق لهم أن يسنوا وإنما هو خاص بمن له حق الاجتهاد فتعين اتباعهم في ذلك وإلا يدخل في قول الله سبحانه « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » (٤ / ١١٥)

ويدخل في قول النبي صلَّى الله عليه وسلَّم « لا يجمع الله أمتي على ضلالة ومن شذَّ شذَّ إلى النَّار » .(رواه الترمذي)

٢ً ـ الله سبحانه وتعالى أخبرنا عن المنافقين بقوله « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » . (٤ / ٨٣)

فالآية الكريمة نص صريح في أنه عند نزول نازلةٍ ما على المسلمين أن يمتنعوا في الخوض فيها بآرائهم وأهوائهم وأنَّ الواجب عليهم أن يردوا حكم تلك النازلة إلى الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم أي سنته فإن لم يوجد فيها نص صريح يبين الحكم وجب عليهم أن يرجعوا

إلى أولي الأمر منهم وهم الأئمة المجتهدون الذين يستنبطون حكم تلك الواقعة من النصوص ومن لم يرجع إليــهم في بيــان ذلك كان متبعــاً للشيطان وكفى بذلك ضلالاً .

٣ً ـ أخبر الله سبحانه أنَّ له عباداً سمَّاهم عبَّاد الرَّحمن وأخبر أنَّ من دعائهم ما حكاه الله عنهم « واجعلنا للمتقين إماماً » (٢٥ / ٧٤) فاستجاب الله دعاءهم وجعلهم أئمة للمتقــين ، فكــل مــن كــان مــن المتقين كانوا أئمته ، ومن تبرء من إمامتهم كــان تــبرؤه دليلاًعلــى أنــه ليس من المتقين ، والله سبحانه جعل القرآن الكريم هــدىً للمتقــين ، وفي هذا بيان أنَّ من فهم القرآن بفهم أئمة المتقين كان القــرآن هــدىً له ، ومن فهمه برأيه وهواه كان القرآن سبب ضلاله وانحرافه ، وهذا ما ذكره ربنا سبحانه عن أقوام إذا نزلت آيات القــرآن زادتهــم إيمانــاً إلى إيمانهم ، وذكر عن أقوامٍ آخرين أنه تزيدهم آيات القــرآن رجســاً إلى رجسهم وهو عليهم عمىً ، ولمَّــا ضــرب أمثلـة في كتابـه الكريـم قال : « وما يعقلهـا إلا العـالِمون »(٢٩ / ٤٣) . وقــال : « إِنَّ في ذلــك لآيــات للعــالِمين » (٣٠ / ٢٢) وقــال عــن المَثَــل في ســورة البقرة « يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاســقين » (٢ / ٢٦) ، فالذي يحفظك من الضلال في فهم آيات القرآن هـوأن تفهمها بفهم أئمة المتقين ، ومن المعلوم لكل باحث أنَّ ســبب افــتراق الأمة الإسلامية إلى شيع وطوائف هــو القــرآن حمَّــال الأوجــهِ الكثـيرة

وربنا سبحانه حذّرنا من ذلك بقوله « ولا تكونوا من المشركين * من الذينَ فَرَّقوا دينهم وكانوا شيَعاً » (٣٠ / ٣١ - ٣٢) بل ينبغي أن يكون القرآن مصدر وحدة إسلامية عالمية وما ذلك إلا بفهم نصوصه بفهم أئمة المتقين الذين لا عداوة بينهم كما قال تعالى : « الأخلاَّء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » (٤٣ / ٦٧) فانظر في الذين فهموا القرآن بآرائهم وأهوائهم كيف يعادي بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم بعضاً ولم يسلم من ذلك إلا المتقون الذين فهموا نصوص القرآن الكريم فهماً مشتركاً أورثهم سلامةً في الصدور فلا عداوة بين بعضهم بعضاً ولا يكفر بعضهم بعضاً وهذا دليل على صحة تقواهم وأنَّ الله سبحانه هداهم صراطه المستقيم وجعلهم أئمة يُقتدى بهم في الظلمات في جميع الأزمنة لوجود الإسناد المتصل بين الخَلَف والسلف المسلسل بالعلماء الأتقياء والأولياء النجباء فمن اتصل سنده بهم فهو منهم وسميٌّ (خير خَلَف لخير سلفَ) ومن لم يتصل إسناده بهم وطعن بهم فهو من (الخَلْف) الذين قال فيهم النبي صلَّى الله عليه وسلَّم « ثم تخلُف من بعد ذلك خُلُوف يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس بعد ذلك من الإيمان حبة خردل » . (رواه مسلم)

وينبغي أن لا يغتر أحدنا ولا يخدع بعبادة هؤلاء ولا بزيِّهم لأنَّ

النبي صلَّى الله عليه وسلَّم عندما ذكر الخوارج قال :« يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة»رواه الشيخان .

وقال عن أتباعهم في آخر الزمان « يخرج في آخر الزمان قوم سفهاء الأحلام حدثاء الأسنان يقولون من قول خير البرية يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان » . (رواه الشيخان)

٤ً ـ أخبر الله سبحانه أن المنافقين يطلبون من المؤمنين على الصراط أن ينتظروهم حتى يقتبسوا من نورهم فقال سبحانه « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسورٍ له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَلِه العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانيُّ حتى جاء أمر الله وغرَّكم بالله الغَرور » (٥٧ / ١٣ - ١٤) . فهم كانوا في الحياة الدنيا يجالسون المؤمنين على الريبة والشك والغرور ، وهذا الذي حرَم قلوبهم وعقولهم من اقتباس أنوار المؤمنين العلماء بالله وبأحكام دينه فلما حُرموا من اقتباس أنوارِ العلماء في الدنيا لم يكن لهم نصيب من اقتباس أنوارهم على الصراط يوم القيامة ، أمَّا المؤمنون

المتبعون لأولئك العلماء الربانيين والذين اقتبسوا من أنوار علمهم وحكمتهم وانتفعت بذلك قلوبهم وعقولهم هم معهم يوم القيامة ويسيرون مقتبسين من أنوارهم كما قال تعالى : « نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » وهذا عقب قوله : « يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه » (٦٦ / ٨) فهذه المعية مع النبي صلّى الله عليه وسلّم هي مصدر نورهم ، والمعية مستمرة بالإسناد المتصل إليه عن طريق وراثه من العلماء والأولياء الذين ورثوه وراثة علمٍ ووراثة حال .

٥ً ـ أخبر الله سبحانه أنَّ النور الفرقاني الذي يكرم به بعض عباده هو ثمرة التقوى فقال : « إن تتقوا الله يجعلْ لكم فرقاناً » (٨/ ٢٩) ولا شك أنَّ درجات المتقين متفاوتة فيما بينهم وبتفاوت تلك الدرجات سيتفاوت الفرقان الذي يعني التفرقة بين الحق والباطل فيما هو مرئي ومسموع ومقروء ، ومن فاتته الدرجة العليا من حقيقة التقوى التي أشار إليها قوله تعالى « اتقوا الله حقَّ تقاته » وقول النبي صلَّى الله عليه وسلَّم : « لا يبلغ عبد درجة المتقين حتى يدع ما لابأس به مخافة مما به بأس » (رواه الترمذي) فقد فاته النور الفرقاني وبالتالي تُلبِّس عليه نفسه فتريه الحق باطلاً والباطل حقاً فلم يبق أمامه سبيل إلا أن يتبع أولئك العباد الذين اتقوا الله حق تقاته فكان لهم النور الفرقاني من الله فهداهم الحق سبحانه إلى معرفة الحق حقاً

والباطل باطلاً ، فعندما تتبعهم فيما نصوا عليه من أحكام وما أُكرموا به من حِكم تكون آخذاً بثمرة حقيقة التقوى التي كانوا عليها ، وحقيقة التقوى (الورع) الذي يتقي صاحبه الشبهات كما قال النبي صلّى الله عليه وسلَّم : « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرضه » (رواه الشيخان) ومن ذلك أي مما يجب اتّقاؤه عند صاحب حقيقة التقوى شبهات تكفير معيَّن من المسلمين وذلك لأنَّ التكفير أشد من الحدود التي قال فيها النبي صلّى الله عليه وسلَّم « ادرؤوا الحدود ما استطعتم » (رواه الترمذي) فكيف لا ندرأ عن مسلمٍ التكفير وكلامه يحتمل وجوهاً من التأويل .

فتبين أنَّ الذين يُكفّرون أحداً من المسلمين اليوم لم يبلغوا حقيقة التقوى وبالتالي ليس لهم ذلك الفرقان فلا يجوز اتباعهم في شيءٍ من ضلالاتهم التي خرقوا فيها إجماع الأئمة من السلف والخلف وخالفوهم في العقيدة والفكر وطعنوا بهم تكفيراً وتفسيقاً ، وعلى المسلم المؤمن الذي يستبرأ لدينه وعِرضه أن يبقى متبعاً لمن أكرمهم الله بالفرقانِ النوراني من أولئك العِباد الذين اتقوه حق تقاته وأن يحيي سننهم الحسنة ويقلدهم في اجتهادتهم الفرعية فيكون بذلك إن شاء الله على الحق وعلى صراطٍ مستقيم .

٦ً - قوله تعالى : « فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم » . (٢ / ٢١٣)

فهذه الآية تدل على أنَّ الذين آمنوا وهم العلماء بالله تعالى وبأحكام دينه هداهم الله لما اختلف فيه غيرهم ، وجعل ما توصَّلوا إليه الصراط الذي من اتبعهم فيه كان سالكاً إيَّاه ، وذلك لأنَّ الذين آتاهم الله تعالى رحمةً من عنده وعلمهم من لدنه علماً لا يكونون مصدر خِلاف ولا اختلاف كما قال عن عبده خضر عليه السلام « عبداً من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعلَّمناه من لدنَّا علماً » (١٨ / ٦٥) وقال عن عَامة الخلق « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » (١١ / ١١٨) فالذين رحمهم الله بالعلم لا خلاف بينهم ولا اختلاف وما كان عند غيرهم من ذلك يريهم الله تعالى بنوره الحق فيه فيتبعونه ويَدلُّون الناس عليه .

٧ً ـ قوله تعالى : « واتَّبع سبيل من أناب إِليَّ » (٣١ / ١٥) في هذه الآية أمر من الله سبحانه أن نتبع سبيل المنيبين من عباده وهم أصفياؤه وأولياؤه وورَّاث نبيه صلَّى الله عليه وسلَّم لأنَّ كلمة (مَن) من صيغ العموم فيدخل فيها كل عبدٍ منيب ، ولا شك أنَّ العلماء الذين يورث كلامهم واجتهادهم الإنابة إلى الله لتحققهم بصدق القصد وكمال الإخلاص كانوا على قدمٍ عظيم من الإنابة لله تعالى والله قد أمرنا باتباعهم في ذلك فتعين علينا الامتثال ، وذلك لأنَّ الكثير منا يفقد الإنابة الحقيقية فعليه أن يستفيد من مواهب الله تعالى لعبادِه الصادقين فيعمل بها ليصل إلى امتثال قوله تعالى « وأنيبوا إلى

ربكم » . (٣٩ / ٥٤)

٨ً ـ قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » (٩ / ١١٩) فيأمر الله عباده المؤمنين بالتقوى وتكون بامتثال أمره واجتناب نهيه ، ثم أمرهم بأن يكونوا مع الصادقين وهم العلماء الربَّانيون الذين تحققوا بالهجرة فهاجروا من نفوسهم إلى عقولهم ومن عقولهم إلى قلوبهم ومن قلوبهم إلى أرواحهم وذلك لأنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه احتج بهذه الآية عندما قالت الأنصار رضي الله عنهم « منا أمير ومنكم أمير » قرأ أبو بكر عليهم هذه الآية وقال لهم إنَّ الله سمَّانا صادقين وسمَّاكم المفلحين فقال تعالى : « للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوَّءو الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً ممَّا أُوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يُوق شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون » (٥٩/٧ -٨) فأُمر المُفلحون وهم الأنصار أن يكونوا مع الصادقين المهاجرين ، والآية تعم كل من انطبق عليه وصف الفلاح ووصف الصدق فمن كان من المفلحين لا بدَّ أن يكون تابعاً لرجلٍ صادق من عباد الله العلماء الورَّاث المحمديين وهذا يصدق على أتباع الخلفاء الراشدين والأئمة المجتهدين من سَلف الأمة وخلَفها ، أمَّا الخارجون عن اتباعهم



فتجد أنَّ لهم سلفاً من الضالين المضلين رؤوس البِدع والفتن دعاة الشقاق والخلاف في القرن الثاني والثالث الهجريين كالمعتزلة والخوارج والمجسمة والمشبهة .

٩ً ـ قوله تعالى : « إِنَّما وليُّكمُ الله ورسولُه والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » (٥ / ٥٥) فالآية تبين الولاية التي بين المؤمنين كما جاء مصرحاً به في قوله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » (٩ / ٧١) وهي ولاية النصرة ، فالمؤمن ينصر المؤمن في غَيبتهِ وبعد موته وذلك بنصر ما أكرمه الله به من فهمٍ قلده عليه جمهور العلماء والأئمة من بعده ، ويدخل في ذلك اجتهاد المجتهدين فمن طعن بهم وأمر الناس بالخروج عنهم ليس بينه وبينهم صلة الإِيمان الحق ويجب على كل مؤمنٍ أن يردَّ قوله عليه وأن ينصر المؤمنين من المجتهدين وأتباعهم في الغَيب ليدخل في قول النبي صلَّى الله عليه وسلَّم « من ردَّ عن عرض أخيه ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة » (رواه الترمذي) وعندما يظهر سبُّ السلف الصالح تتعين نصرتهم في الغيب لما بين المؤمن وبينهم من ولاية الإيمان .

وهذه بعض الأدلة من الحديث النبوي الشريف

١ً ـ حديث العِرباض بن سارية رضي الله عنه الذي أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح وفيه :« فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عَضُّوا عليها بالنواجذ » . وخلفاؤه هم وُرَّاثه الذين قال فيهم « اللهمَّ ارحم خلفائي قالوا ومن خلفاؤك يا رسول الله ؟ قال الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس » أخرجه الطبراني .

٢ً ـ حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما مرفوعاً « الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهنَّ كثير من الناس » الحديث ، رواه البخاري ومسلم .

فإذا كان كثير من الناس لا يعلمون حكم المتشابه وجب عليهم الرجوع إلى قليلٍ من الناس يعلمون حكمه وهم العلماء المجتهدون

٣ً ـ حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضاً فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير » الحديث رواه البخاري .

فالأراضي الطيبة هي قلوب العلماء والأئمة التي قبلت هدى الله فأنبتت تلك الأراضي فقهاً وفهماً واستنباطاً وُصف بأنه كلأ وعشب كثير .

٤ً ـ حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه مرفوعاً : « ربَّ حاملِ فقه ليس بفقيه وربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه » الحديث رواه أبو داود والترمذي وأحمد والدَّارِمي .

فيه دليل على أنه يوجد من التابعين وتابعيهم أهل دراية تصل إليهم الرواية فيفقهونها على وجهها ويؤدونها أحكاماً وعلوماً إلى الأمة .

٥ً ـ حديث« يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف المبطلين وتأويل الجاهلين» .

٦ً ـ حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعاً : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم » الحديث رواه البخاري ومسلم .

وأولئك هُمُ الذين اتصلت أسانيدهم بأئمةِ السلف الصالح المجتهدين ، والله تعالى أعلم .

جعلنا الله تعالى وإِخوانَنا وأهلنا وذرِّياتنا وجميع عباده منهم ومعهم آمين . وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد النبِّي الأميِّ وعلى جميع إِخوانه الأنبياءوالمرسلين وآلهم وأصحابهم وسلَّم تسليماً كثيراً .

سبحانك اللهمَّ وبحمدك أشهد أن لا إِله إلا أنت أستغفرك وأتوب إِليك .

وكان الفراغُ مِن كتابة هذه الرِّسالة يوم الاثنين الواقع في ١٦ / ربيع الآخر / ١٤١٦ الموافق لـ ١١ / أيلول ١٩٩٥ م والحمد لله ربِّ العالمين .

وكتبه : عبد الهادي محمَّد الخرسة
خريج جامعة الأزهر ـ إِمام مسجد السنانية بدمشق



خاتمة

كُتُبٌ أُلِّفَتْ في مسألة التوسل والاستغاثة وأدلتها :

أَنْصح بشرائها ومطالعتها وهي :

١ً ـ شواهدُ الحق في الاستغاثة بسيِّد الخَلْق .

للشيخ يوسف النَّبْهاني رحمه الله تعالى .

٢ً ـ مفاهيم يجب أن تصَحَّح

للشيخ المحدِّث محمَّد بن عَلَوي المالكي حفظه الله تعالى .

٣ً ـ رَفع المَنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة .

للأستاذ الشيخ محمود سعيد ممدوح حفظه الله تعالى .

الفهرس